

## شعره

كان أبو فراس يعجب بالشعر الجيد ، ويطرب له ، ويحس برقته ، كما يحس  
برقة السندس والحريز ؛ ويشعر أمام القوافي الجيدة ، بما يشعر به الصادي ،  
اهتدى إلى بارد الماء ؛ ويقف عند اللفظ وفق إليه قائله ، كما يقف الجوهرى ،  
اهتدى إلى لؤلؤ مكنون . كتب إلى ابن عمه مرة يقول له :

وردت منك يابن عمى هدايا      تنهادى فى سندس ، وحريز  
بقواف ، ألد من بارد الماء . ، ولفظ ، كاللؤلؤ المنشور  
ويرى الشعر هبة ، لا تخلق من عدم ، ولا تتكلف بالسير على قواعد  
العروض ، فهؤلاء الذين فقدوا تلك الموهبة ، يبدو على شعرهم الإجهاد والتكلف ؛  
فخير الشعر عنده ما انساب على لسان قائله . قال يهجو بعض متكلفى المكارم :

تكلفوا المكرمات كدأ      تكلف الشعر بالعروض

قصائد أبى فراس ومقطوعاته ، تتحدث غالباً عن تجربة شعورية واحدة ،  
لا اضطراب فيها ولا تشويش ، وتتضافر الأبيات على توضيح هذه التجربة ،  
ونقلها إلى القارى مرتبة ، كما أحس بها منشئها ، فقصائده ذات وحدة لا يستطرد  
فيها ، ولا يولد معنى من آخر . ويطيل إذا كانت التجربة لديه متشعبة النواحي ،  
كثيرة الأجزاء . ويقتصر على بيتين أحياناً ، لنقل ما أحس به . ولا يشوش  
عليه هذه الوحدة إلا أنه قد يبدأ قصائده بالفرزل ، ولكنك إذا تركت هذا  
الفرزل جانبا ، وجدت الوحدة متسقة واضحة خذ مثلاً هذه الأبيات ، التى يشاقق  
فيها إلى حلب :

سقى ترى حلب ما دمت ساكنها      يا بدر ، غيثان : منهل ومنبجس  
أسير عنها ، وقلبي فى المقام بها      كأن مهرى ، لثقل السير ، محتبس

هذا ، ولولا الذى فى قلب صاحبه من البلبل ، لم يخلق به فرس  
كأنما الأرض والبلدان موحشة وربها ، ذونهن ، العامر ، الأنس  
مثل الحصاة التى يرمى بها أبدا إلى السماء ، فترقى ، ثم تنعكس  
فأنت تراه يدعو — على عادة العرب — بالسقيا لقلب ، ولا يرضى أن  
يسقيا ، ما دام يسكنها من يهواه ، إلا غيثان مهمران ، ثم يحدثك عن هذا  
النزاع النفسى ، الذى دار فى قلبه ، عند ما اضطر إلى مفارقتها ، ونفسه وهواه  
فى المقام بها ، فحضى عنها متثاقلا فى سيره ، لشدة نزوعه إلى تلك المدينة الحبيبة  
إليه ، حتى لكان مهره حبيس مقيد ، وإنه لم يغادر قلب إلا مضطرا ، دفعه  
إلى الخروج عنها تلك البلبل التى تهيجه ، وتحول بينه وبين الاستقرار حيث  
يهوى ، وهو — حينما سار — يرى الدنيا موحشة فى عينيه ، ولا يجد العمران  
والأنس ، إلا فى ربعا المحبوب ، ومن أجل ذلك هو منجذب إليها ، مندفع  
نحوها بقوة ، لا يستطيع الإفلات منها ، مثله فى ذلك مثل حصاة ، تدفعها إلى  
السماء ، فتندفع ، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى مستقرها على الأرض .

تلمس من ذلك وحدة التجربة ، وتضافر أجزاء القصيدة على إيضاها .  
وها هى ذى إحدى قصائده التى أنشأها فى أول عهده بالأسر ، وهى من أشهر  
قصائده الدائرة على الألسن . افتخر فيها وتسكلم عن حادث أسره .

اتبع الشاعر النظام التقليدى فى بناء القصيدة ، فبدأ قصيدته بالنزل الذى  
استوحى معانيه من موقفه أسيرا ، تضطرم نفسه ألما من التقيد بعد الحرية ،  
ولكنه يكظم هذا الألم ، ويحاول أن يستره عن أعين الناس جميعا ، حتى إذا  
أجته الليل ناجى نفسه بألمه المكبوت ، وبكى شوقا إلى الحرية المفقودة ،  
وحنينا إلى عهد الانطلاق كما يريد ، وربما اشتد به الحنين إلى ذلك فناجى الحرية ،  
وسألها متى تعود إليه ؟

هذا هو الجو الذى سيطر عليه ، عندما أنشأ غزل هذه القصيدة ؛ فاستقى الغزل

بعض معانيه منه ، فتسمعه يقول :

أراك عصيّ الدمع ، شيمتك الصبر      أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟ !  
بلى ، أنا مشتاق ، وعندي لوعة      ولكن مثلى لا يذاع له سرّ  
إذا الليل أضواني<sup>(١)</sup> بسطت يد الهوى      وأذلت دمعاً ، من خلائقه الكبير  
تكاد تضيء النار بين جوانحي      إذا هي أذكتها<sup>(٢)</sup> الصبابة والفكر  
ويقول :

كأنى أنادى دون ميثاء<sup>(٣)</sup> ظلية      على شرف ظمياء<sup>(٤)</sup> ، جلها الذعر  
تجفل<sup>(٥)</sup> حيناً ، ثم تدنو كأنما      تنادى طلاً<sup>(٦)</sup> بالواد ، أمجزه الحضر<sup>(٧)</sup>  
وباقى الغزل فخر بمثاليته في الحب ، ونقاش بينه وبين من يحب ، يمت  
بسبب وثيق إلى هذه المثالية ، فهو وفى لها برغم إصغائها إلى الواشين ، يحفو داره  
في سبيل حبه لدارها ، بل يحارب قومه الأعزاء في سبيل هواها ، وهو خاضع  
لحبها ، يقبل راضياً أن يتوب إليها من ذنب لم تجنّه يدها ، ثابت على الحب لا يستغزّه  
الطيش ، ولا يدفعه إلى النفرة والإعراض . أما ما دار بينه وبين حبيبته فيؤكّد  
هذه المثالية في الحب أيضاً ، فبينما هي تتدّلى ، وتتعمّت في أسئلتها ، إذا به يجيب  
في رفق متحمّلاً الإِدلال والتعمّت ، راضياً لا يتسخط ولا يتبرم :  
فعدت إلى حكم الزمان ، وحكمها لها الذنب ، لا تجزى به ، ولى العذر  
ومن هذا تظهر الصلة الوثقى بين غزل القصيدة وهدفها ، فالقصيدة فخر بمخلاله  
وسجاياه ، وغزلها فخر بما يتحلّى به في الحب من صفات المحب الصادق في حبه ،  
الوفى لمن يهواه ، الخاضع له ، المتقبّل لحكمه وإن كان ظالماً .

وقد يتوهم متوهم أن من تغزل فيها أبو فراس لا تستحق الحب ؛ لأن لها  
في الهوى قتلى كثيرين ، وليس ذلك بصحيح ، لأنها لم تقل : إني أحب

(١) أضواني : آواني . (٢) أذكتها : أوقعتها . (٣) الميثاء : الأرض السهلة .

(٤) الظمياء من الشفاء : الذابلة في سمرة . (٥) تجفل : تند وتتمرد .

(٦) الطلا : ولد الظبية ، والجمع أطلاء . (٧) الحضر : نوع من العدو .

كثيرين ، بل قالت : إن لها محبين كثيرين ، فمن أنت بينهم ؟ وذلك يدل على مدى ما تتمتع به الحبيبة من جمال يبهّر المعجبين ، وذلك هو ما قصد إليه الشاعر ، عندما أجرى على لسانها هذا السؤال .

واستطاع الشاعر أن ينتقل في لباقة من الغزل إلى الفخر ، فإن سؤال الحبيبة موجهاً إليه ، هو : من أنت ؟ مع أن فتى مثله ، مع وضوح حاله ، وشهرته بين بني قومه ، لا يدع محلاً لهذا السؤال ؛ فأخذ الشاعر يحدّثها عن مفاخره ، وذويع شهرته ، التي لا تدعه نكرة مبهماً ، يجهل أمره ، ولا يعرف قدره ، فقال :  
فلا تنكريني يا ابنة العم ؛ إنه ليعرف من أنكرته البدو والحضر  
ثم مضى يعدد لها مفاخره ، وإن الصلة لوثقت بين الغزل والفخر ، فمن طبيعة الرجل أنه يحب الزهو أمام المرأة ، وأن يظهر أمامها في مظهر كامل مثالي .

وأول ما افتخر به الشاعر فروسيته ، التي تتجلى في ميدانين : معارك القتال ، وتقدير المرأة وإجلالها ، وقد أجاد أبو فراس في تصوير هذه المفعرة ، فهو قائد مظفر ، اعتاد أن يقود جيشه إلى النصر والنجاح ، لا يقنع وهو يقود جيشه بأن يشرف عليه ، بل يخوض ميدان القتال ، بسيف ظاميء إلى دماء العدو ، ثم هو واثق بشجاعته ، لا يدهم حيا غاب رجاله ، ولا يفاجيء عدوا لم ينذره من قبل ، ولا يخشى حصناً يزهو بمنعته ، ومع هذه الشجاعة الباسلة ، لا يلبث أن ينثنى عن عقاب العدو ، وأن ينزل راضياً عن الغنيمة ، إذا شفعت لديه إحدى نساء الحى ، إذ يستقبلها في بشر ، ويردها في عفاف ، ظافرة بكل ما تريد . وتلك هي الفروسية المثلى في ذلك العصر : شجاعة في ميدان القتال ، واحترام للمرأة وتقدير . وقد عبر عن ذلك في قصيدته بأبلغ أداء ، إذ قال :

وإني لنزال بكل نخوفة كثير إلى نزالها النظر الشرر  
فأظلم ، حتى ترتوى البيض والقنا وأسغب ، حتى يشبع الذئب والنسر  
وساجبة الأذيال نحوى لقيتها فلم يلتقها جهم اللقواء ولا وعر

وهبت لها ما حازه الجيش كله ورحت ، ولم يكشف لأثوابها ستر  
والشاعر يفتخر بأن قيمته تنبع من صفاته الذاتية ، وسماته الطبيعية ، لا من  
مال مكتسب تذهب بذهابه ، فلا يبعث المال فيه زهوا ، ولا يضمضع الفقر همته ،  
فيثنيه عن الكرم :

ولا راح يطغيني بأثوابه الفنى ولا بات يثينى عن الكرم الفقر  
وإن الصلة وثيقة بين هذا البيت وسابقه ، الذى حدثنا فيه عن نزوله عن  
الغنيمة راضيا مغتبطا ، فوضح لنا نفسيته التى دفعته إلى ذلك ، بأن المال ليس له  
أثر عظيم ، ولا قيمة كبيرة لديه .

وكان الحديث عن أسره طبيعيا ، فى هذه القصيدة التى تغنى فيها بشجاعته  
وإقدامه ، لأنه أسر نتيجة لهذه الشجاعة والإقدام ، كما أن الأسر لا يفض من  
قيمة هذه الشجاعة ، ولا يضع من شأنها . وقد حدثنا الشاعر عن نفسيته عندما  
أحيط به ، وما دار فى هذه النفس من تفكير وعزم وتصميم ، ومضى يجهّز رأى  
الذى ارتآه ، ويدعم المنهج الذى سلكه ، فى تفضيل الأسر على الفرار ، وقد شغله  
أسر الدفاع عن رأيه هذا ، فأطال فيه ، ولا سيما أن كثيرين عابوا رأيه ، وكان  
يفضلون له أن يفرّ . وذكر ما أبلاه فى المعركة من بلاء حسن فى قتال العدو ،  
ليبين أنه لم يؤسر ، حتى بذل كل ما يمكن بذله فى المعركة : من تقتيل فى العدو ،  
وتحطيم قواه . وإذا كان أبو فراس يؤمن بالقضاء والقدر ، فهو يرى أسره قضاء  
قضى عليه ، وقدرا نزل به ، ولم يأت ذلك من جهل لديه بفنون القتال ،  
أو ضعف فى جنوده :

|                                  |                               |
|----------------------------------|-------------------------------|
| أسرت ، وما صحبى بعزل لدى الوغى   | ولا فرسى مهر ، ولا ربّه غمر   |
| ولكن إذا حم القضاء على امرئ      | فليس له بر يقيه ، ولا بحر     |
| وقال أصبحابى : الفرار ، أو الردى | قللت : هما أمران ، أحلاهما مر |
| ولكننى أمضى لما لا يعينى         | وحسبك من أمرين خيرهما الأمر   |

ومن المرجح أنه أنشأ هذه القصيدة في أول عهده بالأسر ، فإنها خلت من عتاب سيف الدولة ، والشكوى من قومه ، وظلال الهم والألم التي رأيناها تظلل شعره ، بعد أن طال أسره ، بل إنها لتتحدث عن أمل وطيد في أن يسرع قومه إلى فدائه ، لأنهم وهم المشتبكون دائماً مع العدو ، سوف يجدونه ضروريا لهم ، لا يستطيعون الاستغناء عنه ، وليس عندهم من يملأ مكانه ، أو يسد الفراغ الذي تركه . وتدل على نفس لم يحطمها طول الأسر ، فهي تؤمل في عودة سريعة إلى ميدان القتال ، يذوق فيها العدو ما ألفه : من طعن أبي فراس ، وهجومه عليه ، بعدده وعدته :

سيد كرفى قومي ، إذا جد جدم      وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر  
ولو سد غيري ما سددت اكتفوا به      وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر<sup>(١)</sup>  
ويحتم الشاعر قصيدة مفتخراً بمجد أسرته الذي بنته بسيوفها ، ووجدت بذل النفوس رخيصة في سبيل نيله . وإن مكانة الأسرة الحمدانية ، وتصديها للدفاع ضد الروم حيناً ، والدفاع عن الخلافة العباسية ، التي كانت يومئذ هي السلطة الدينية ، التي يستمد كل سلطان منها سلطانه ، والتجاء هذه الخلافة حيناً إلى حماية هذه الأسرة العربية ؛ لتدافع عنها ، وتحميها — خلق ذلك كله شعوراً بالعزة والزهو في نفس هذه الأسرة ، عبر عنه أبو فراس بقوله :

أعز بنى الدنيا ، وأعلى ذوى العلا      وأكرم من فوق التراب ، ولا فخر  
ومن هذا العرض ، يتبين كيف كانت أجزاء القصيدة متسقة ، يرتبط فيها الجزء بصاحبه ، ويسلم بعضها إلى بعض ، مما يدل على أن الترتيب في عرض التجربة الشعرية ، كان من صفات أبي فراس الفنية . وقد طرز الشاعر قصيدته ببعض الحكم ، وربما كان مقلداً في ذلك للمتنبي ، يتخذها الشاعر مؤيدة لأفكاره ، من مثل قوله :

---

(١) الصفر : النحاس .

ولكن إذا حم القضاء على امرئ . فليس له بريقه ، ولا بحر  
ويمتاز شعر أبي فراس أيضاً ، بوحدة النسج غالباً ، فلا تجد فيه بيتاً من  
حرير ، وآخر من قنب ، ولكن الجمال موزع هنا وهناك ، لا يرتفع محلقاً ،  
ولا ينحط مسفاً ، وسوف نرى أن ما فيه من مظاهر الضعف ، لا ينزل به إلى  
الحضيض .

وعند الشاعر قدرة فنية على استخدام الألفاظ ، والأساليب الموحية ،  
والإتيان بالقافية في مكانها ، لا تأسره ، ولا تخضع أفكاره لها . خذ مثلاً كلمة  
« غنج » في قوله :

أحسن من قهوة معتقة بكف ظبي مقرطق غنج  
لترى قوة دلالتها في هذا الموضع ، وقوله :

فبت أعل خرا ، من رضاب لها سكر ، وليس لها خمار  
إلى أن رق ثوب الليل عنا وقالت : « قم ؛ فقد برد السوار »

فانظر جمال قوله : « رق ثوب الليل » ، ليدل به على قرب بزوغ النهار .  
ولرغبته في أن يجعل شعره موحياً بإحساسه ، قل استخدام الألفاظ الغريبة  
عنده ، حتى لا تقف عثرة ، بينه وبين قارئه ، ولكنه أحياناً لا يجد بدا من  
استخدامها ، فترى كلمة « عذافر » بمعنى الشديد من الإبل ، و « عراعر » بمعنى  
السيد ، و « ناجر » لشهور الصيف ، و « زراور » جمع زروار ، بمعنى البطريق ،  
وغير ذلك .

ولكني لا أنكر أن التوفيق خانه في استخدام بعض الألفاظ والأساليب ،  
فن ذلك كلمة « غير » في قوله :

ولله عندى فى الإسار وغيره مواهب ، لم يخص بها أحد قبلى  
وقوله :

وإننا لنلقى الخطب فيك ، وغيره بموفق عند الخطوب ، معان

فإنها لا توحى إلى النفس بفكرة محددة . وكلمة «أدنى» بمعنى أقرب في قوله :  
أما أنا أعلى من تعدون همة وإن كنت أدنى من تعدون مولدا  
في بعض الروايات ، لأنها توحى بمعنى الانحطاط ، ولعل الذى دفعه إلى  
استخدامها كلمة أعلى في الشطر الأول .

وإحدى كلمتي (حين ولما) زائدة في قوله :  
أخذت في تطلب العلات حين لما رأت مشيب شواتي  
وكذلك كلمتا المكتسى المرتدى ، في قوله :  
بذي الغزال المكتسى ثوب الجمال ، المرتدى  
وكلمتا العاتق والهادى ، في قوله :  
ألا ياربة الحلى على العاتق والهادى  
وتلك ألفاظ يكمل بها الوزن فحسب .

كما أن وصفه الشيب بأنه الذى فى الذوائب ، فى قوله :  
أراهن يبدن الصدود عن الفتى إذا ما بدا الشيب ، الذى فى الذوائب  
وصف لا قيمة له ، كوصفه العزم بأنه غير كاذب ، بعد أن وصفه بأنه  
صادق ، فى قوله :

شفيت بعزم صادق ، غير كاذب ورمح ردينى ، وأبيض صارم  
كما نلس التفاهة والضعف فى الشطرين الأخيرين للبيتين التالين :  
وقد كنت ذا علم بما يصنع الهوى وما جاهل شيئا ، كمن هو عالمه  
بنينا من العلياء مجدا مشيدا وما شائد مجدا ، كمن هو هادمه  
وعذره أن ذلك من شعره ، وهو صغير ، قبل أن يبلغ العشرين  
وأكثر أبو فراس من إلحاق علامة الجمع للفعل ، إذا كان فاعله جمعا ،  
كقوله :

وعندى صدق الضرب فى كل معرك وليس علىّ إن نبون المضارب

وقوله :

ولا أنا راض إن كثرت مكاسبي إذا لم تكن بالعز تلك المكاسب

وقوله :

نتج الربيع محاسنا أنقحنه غر السحاب

وغير ذلك كثير ، وجهور النحاة يضعفون هذا الأسلوب ، وإن كان سائغاً مقبولاً عند أبي فراس .

ولأبي فراس كلمات محبوبة ، أكثر استخدامها ، من بينها كلمة رسيس بمعنى ابتداء الحب ، وأراغ بمعنى أراد ، والزراور ، ولعله وجد في جرسها ما ينم عن سخريته بهذه الطائفة . وأكثر كذلك في المدح ، من استخدام كلمة قرم بمعنى السيد ، ومشيع بمعنى ممدح مدعوله .

كان شعر أبي فراس طبيعياً لا يقصد فيه إلى الزينة قصداً ، يضحى من أجلها بوضوح الفسكرة ، أو جلاء المعنى ؛ ومن أجل هذا لا تحس بتكلف فيما يأتي به ، من صناعة لفظية تعرض له ، ولا تكاد تتبين هذه الصناعة ، إلا إذا وقفت تتلمسها تلمساً ، وإن شئت أن ترى ذلك فاستمع إلى قوله :

وتغضب حتى إذا ما ملكت ، أطلعت الرضا وعصيت الغضب

وقوله :

إن الغزالة والغزالة أهدتا وجها إليك ، إذا طلعت ، وجيدا

وقوله :

لا تشعلن ، فما تدري بحرقته أنت عاذله ؟ أم أنت عاذره ؟

وقوله :

دأب إلى سبل الندى والعلا ناء عن الفحشاء والباطل

لترى ما فيه من صناعة لفظية ، بعيدة عن التكلف . كما أنه كان عندما يقتبس من شعر غيره ، يمهده له تمهيداً جيداً ، يضع به ما يقتبسه في موضعه . ومع

ذلك لا تجد هذه الصناعة اللفظية ، إلا قليلة لا تدخل أبا فراس ، فيمن يعنون بها ، أو يحتفلون بمعالجتها .

وبعد فشعر أبي فراس يتسم بمسحة من الجمال تكسوه كله ، ووحدة في القصيدة ، لا تشتت ذهن القارىء ، ولا تستر عنه المعنى ، وصدق في التعبير عن العاطفة ، تحببه إلى سامعه وتعطفه عليه ، وبعد عن الزخارف ، التي ربما توحى إلى النفس بأن قائل الشعر ، يرمى إلى التلاعب بالألفاظ ، لا إلى إظهار عواطفه . ولشعره منذ الصبا هذه الخصائص ، ففي ديوانه كثير من القصائد التي أنشأها قبل أن يبلغ العشرين ، ترى فيها ذلك النضج المبكر ، وإن كنت تجد فيها أحيانا غرور هذه السن ، التي لم تتمرس بعد بتجارب الأيام ، كما في قوله لابن عمه ، المهلهل أبي زهير :

سل الدهر عني ، هل خضعت لحكمه      وهل راعني أصلاله<sup>(١)</sup> وأراقمه<sup>(٢)</sup> ؟  
وهل موضع في البر ما جبت أرضه      ولا وطئته من بعيري مناسمه<sup>(٣)</sup> ؟  
ويحسن بي الآن أن أتناول أغراض شعره ، وأن أدرس سمات كل غرض منها وخصائصه .

---

(١) أصلال : جمع صل بكسر الصاد وهي الحبة أو الدقيقة الصفراء .

(٢) أراقم : جمع أرقم وهي أخبث الحيات وأطلبها للناس .

(٣) مناسم : جمع منسم كجلس : خف البعير .

## أغراض شعره

نقرأ في ديوان أبي فراس قوله :

الشعر ديوان العرب أيضاً ، وعنوان الأدب  
لم أعد فيه مفاخرى ومديح آبائي النجب  
ومقطعات ، ربما خلّيت منهن الكتب  
لا في المديح ، ولا الهجاء ، ولا المجون ، ولا اللعب

وإذا تفاضنا عن كلمة « أيضاً » وهي قلقة في هذا الموضع ، وجدناه يردد ما قاله الأقدمون ، من أن الشعر ديوان العرب ، خلدوا فيه مآثرهم ، وضمنوه حياتهم وتحاربهم . ثم يحدد ما تناوله من الأغراض في شعره ، فيذكر أنه لم يتعد تسجيل مفاخره ، ومفاخر آبائه الأجداد ، ومقطعات يتحلّى بها جيد الكتب ، والمقطعات في ديوانه إنما هي في الحكمة والغزل والوصف ، أما المديح والهجاء والمجون ، فلم تكن من بين ما يقصد إليه من الأغراض .

صدق أبو فراس إلى حد بعيد ، فإن معظم شعره كان فخراً بنفسه ، ومدحاً لأبائه . ومن شعره أيضاً ما قاله في الغزل والحكمة والوصف ، أو دججه رسائل إلى صحبه وأقاربه . أما الهجاء فلم يجربه قلمه ، اللهم إلا بيتين ، قالهما في شاعر يدعى الشيطمي ، وهما :

في الشيطمي غشاشة<sup>(١)</sup> ، وخساسة فإذا أدت الكف فيه تهذبا

كالطبل ، ليس بمطرب ، حتى إذا كثر اللطام بجانيه ، أطربا

وإلا ما كان من هجائه للعباسيين . وقد سبق عرض هذه القصيدة ، عند الحديث عن تشيعه ، وإلا قصيدته التي هجا بها الروم ، عندما حاولوا مناقشته

---

(١) الغشاش بالكسر : أول الظلمة وآخرها .

فى الدين ، وقد سبق عرضها أيضا .

أما المجون فلم يتناوله إلا فى قطعة واحدة ، نقلناها عند حديثنا عن حظه من اللهو ، وأما المدح فقد وقف فيه عند سيف الدولة ، الذى كان الشاعر يعده العنوان الحديث لمجد أسرته ، ولم يتجاوز ذلك ، إلا إلى مدح من كانت بينه وبين الشاعر صلة أخوة أو صداقة .

وأهل الشاعر أنشأ تلك المقطوعة قبل الأسر ، فهى قطعة فرحة مفتخرة ، ولو أنه كان قد أنشأها بعد الأسر ، لضم إلى ذلك غرضاً آخر ، أطلال فيه وأكثر ، هو غرض الشكوى والعقاب .

وواضح أن وقوف أبى فراس عند تلك الأغراض وحدها ، كان مما اقتضته حياته ، كأمر من أمراء الأسرة المالكة ، يترفع عن الهجاء الذى يكون بين متساويين ، وعن المدح لمن كان يعتقد أنه أقل منه قدرا .

والآن نقف عند كل غرض قال فيه ، لنتبين ملامحه ، وندرس سماته .

---

## الفخر

كان الفخر من أهم أغراض أبي فراس ، وقد رأيناه يرى الشعر ديواناً ، يسجل فيه مفاخره ، ومفاخر أسرته . ولقد كان نضجه في هذا اللون من القول مبكراً ، مما يدل على أن شعوره بمكانة أسرته ومكانته ، كان ماثلاً عليه جوانب نفسه ، فقد نظم وهو صبي أبياتاً ، تسجل ما جرى في الموصل بين ابن رائق ، الذي دبر مكيدة لناصر الدولة ، يريد قتله ، فكان ناصر الدولة ، أسبق إلى الفتك به ، وكان ابن رائق قد قتل عمارة العقيلي ، وجماعة من نمير ، فقال أبو فراس :

لقد علمت « قيس بن عيلان » أننا بنا يدرك الثأر ، الذي قل طالبه  
وأنا نزعنا الملك من عقر داره وننتهك القرم الممنع جانبه  
وأنا فتكنا بالأغر « ابن رائق » عشية دبت بالفساد عقاربه  
أخذنا لكم بالثأر ثأر « عمارة » وقد نام لم ينهد إلى الثأر صاحبه  
فأنت ترى قوة الأسلوب ، تتسق مع قوة الخاطر ، الذي أوحى بهذا الشعر ، وقوة الانفعال الذي استولى على الشاعر .

ولا غرابة أن يكون الفخر من أهم أغراضه ، فقد كانت عناصره مهيأة له ، ودوافعه عتيقة لديه ، فهو أمير من بيت ملك ، يحكم شمال الشام والجزيرة ، ومن أسرة بنت ملكها على أسنة رماحها ، وهو بطل من أبطال الحروب ، وقائد من خيرة قوادها ، وحاكم له مزايا باهرة ، وخلال ناضجة بارعة ، وتلك كانت أهم ينابيع فخاره ، فبأسرته الحاكمة يفتخر بقوله :

أتعجب أن ملكنا الأرض قسراً وأن تمسى وسائدا الرقاب  
وتربط في مجالسنا المذاكي<sup>(١)</sup> وتبرك بين أرحلنا الركاب  
فهذا العز أثبتته العوالي وهذا الملك مكنه الضراب

(١) المذاكي : الخيل التي آتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

ولا يرى أسرته قد خلقت لغير بناء الحمد وتشيد العلا :

لئن خلق الأنام لحسو كأس وطنبور ، ومزمار ، وعود  
فلم يخلق بنو حمدان إلا لمجد ، أو لبأس ، أو لجود  
ويشتد به الإعجاب بهذه الأسرة ، حتى ليراها أشرف الأسر ، لولا انتساب  
رسول الله إلى سواها ، فيقول :

وإني لمن قوم ، كرام أصولهم بهاليل ، أبطال ، كرام المناسب  
ولولا رسول الله ، كان اعتزأؤنا لأشرف بيت ، من لؤى بن غالب  
و يملؤه الزهو بها ؛ حتى ليعتقد أن الواحد منهم ، يكون في القبيلة ، فيصبح  
موثلاً ، يسودها في السلم ، ويحميها في الغارة والحرب ، ويغدو موضع استشارتها ،  
إذا أبهم عليها السبيل ، ويصير ملجأ البأس والمعتر :

إذا كان منا واحد منا في قبيلة علاها ، وإن ضاق الخناق حماها  
وما اشتورت ، إلا وأصبح شيخها ولا حوربت ، إلا وكان فتاها  
ولا ضربت بين القباب قبابه وأصبح مأوى الطارقين سواها  
فلا غرو ، ونظرتة إلى أسرته تلك النظرة ، أن يقول :

إني امرؤ بيني حمدان مفتخر خير البرية ، أجدادا ، وأسلافا  
إني لمن معشر ما ضيم جارهم ولا رأى عندهم بؤسا ولا خافا  
إن حالفتنا المعالي فهي قد علمت كانت لأبائنا من قبل أحلافا

وكانت وقائمه التي انتصر فيها من مصادر فخره كذلك ، يسجلها مقترنة  
بأسماء الأماكن التي انتصر فيها ، والأشخاص الذين انتصر عليهم ، وكان سلوكه  
في المعارك ، كفارس نبيل ، لا يعشق الحرب للحرب ، ولكن للتأديب وتثبيت  
أركان النظام ، ثم لا يلبث أن يصفح ، إذا عاد العصاة إلى الطاعة وتابوا — من  
دواعي فخاره ، ولم أشاد بشجاعته في الحروب ، وتغنى بها ، وكان مثله  
الأعلى أن يكون قائداً ممتازاً ، كما ذكرنا . أرسل إلى سيف الدولة بعد

معركة انتصر فيها ، يقول له :

يا ضارب الجيش بى فى وسط مفرقه      لقد ضربت بنفس الصارم العضب  
لا تبرز الدرع عنى نفس صاحبها      ولا أجير ذمام البيض واليلب  
ولا أعود برمى غير منحطم      ولا أروح بسيفى غير مختضب  
حتى تقول لك الأعداء راعمة :      «أضحى ابن عمك هذا فارس العرب»  
وقد يغريه الظفر بعدوه ؛ فيظن الدنيا كلها تحت إمرته وإمرة أسرته ،  
فيقول :

لنا الدنيا ، فاشتنا حلال      لساكفه ، وما شئنا حرام  
وينفذ أمرنا فى كل حى      يقصيه ، ويدنيه الكلام  
وكانت مواهبه كرجل ممتاز ، ينبوعاً يمدّه بوسائل الفخر ، وقد عرفنا أنه كان  
شديد الإيمان بمواهبه ، والاعتداد بنفسه ، والثقة بمجدارته أن ينال أسمى الآمال ،  
وأرفع المكنات ، إذ يقول :

قتلى من نال المعالى بسيفه      وربما غالقه عنها الفوائل  
وما المرء إلا حيث يجعل نفسه      وإنى لها فوق السماكين جاعل  
ولأبى فراس قصيدة مطولة ، لا نظير لها فى الأدب العربى كله — على  
ما أظن — أنشأها فى الفخر ، وسبب إنشائها أن أحمد بن ورقاء ، أنشأ قصيدة  
يهنى بها سيف الدولة ، بغزوة انتصر فيها ، ويفاخر مضر ، بأيام بكر وتغلب ،  
فى الجاهلية والإسلام ، وتغلب جد الأسرة الحمدانية ؛ فلما سمع أبو فراس تلك  
القصيدة ، أنشأ قصيدة يفتخر بمحاضر أسرته ، ومجدها الطارف ، ويرى أن هذا  
المجد الحديث ، أخلق بالفخر من المجد القديم ، لأنه أضوأ منه سنا ، وأرفع  
شأنا ، وأنه لولا هذا المجد الحديث ، ما استطاع شاعر أن يملأ بالافتخار فمه ،  
يقول لأبى أحمد :

أبا أحمد ، مهلا ، إذا الفرع لم يطب      فلا طبن يوم الإفتخار العناصر

أتسمو بما شادت أوائل وائل وقد غمرت تلك الأوالى الأواخر  
وهل يطلب العز الذى هو غائب ويترك ذا العز الذى هو حاضر؟ !  
أنشأ أبو فراس قصيدته ، على ما أرجح — سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ،  
لأن قصيدة ابن ورقاء ، التى أوحى لأبى فراس بقصيدته ، كانت لتهنئة سيف  
الدولة بغزوة ، تمت فى صفر ، من ذلك العام .

بدأ تلك القصيدة ، بغزل تشم فيه رائحة الفروسية من ناحية ، وروح  
الفخر من ناحية أخرى ، ففيها يفتخر بعفته ، تلك العفة التى تحول بينه وبين  
انتهاك الحرم ، فكان غزل القصيدة مناسباً لجوها ، إذ تسمعه يقول :  
وفى كلتى ذاك الخباء خريدة لها من طعان الدارعين ستائر  
تقول إذا ما جئتها متدرباً : أزار شوق أنت ، أم أنت ثائر؟ !  
ويقول :

فيا نفس ، مالاقيت من لاعج الهوى      ويا قلب ، ما جرت عليك النواظر  
ويا عفتى ، مالى ومالك ؟ كلما      هممت بأمر ، هم لى منك زاجر  
كأن الحجا ، والصون ، والعقل ، والتقى      لدى لربات الخـدود ضرائر  
وكم ليلة خضت الأسنة نحوها      وما هدأت عين ولا نام سـامر  
فلما خلونا ، يعلم الله وحده      لقد كرمت نجوى ، وعفت سراير  
نم ينتقل من الغزل ، إلى الفخر بنفسه ، والإشادة ببعدهمته ، فيقول :

نفى الهم عنى همه علوية      وقلب ، على ما شئت منه ، مؤازر  
وأسمر ، مما ينبت الخط ، ذابل      وأبيض ، مما يطبع الهند ، باتر  
حتى إذا انتهى من ذلك ، وعدد ما أعده لنيل أمله : من الرماح والسيوف  
والخيل والإبل ، مضى إلى الفخر بأسرته ، وبادر بالإشادة برمز مجدها الحديث ،  
وهو سيف الدولة ، ليدل أبا أحمد على موطن الفخار الحق ، ولتكون إشادته

بالمجد القديم الذى بنته أسرته ، مدعماً بهذا المجد المرئى الحاضر .

ولن يجد الشاعر — ولأسرته فخار حى — غضاضة فى الحديث عما لأجداده الأقربين من ذكر حسن ، وشهرة وبعد صوت ، فعدد مآثر جده ، وصورة أميراً عربياً ، يسود عشيرته ، ويجمع شملها بجوده ، وحسن سياسته ، ويتحمل دم قتلها ، ويسوق دياتهم ، فتلتف عشيرته حوله ، ويجتمع أسرها بعد فرقة . فإذا انتهى من حديث جده ، أخذ يعدد مآثر أعمامه ، ويشير إلى وقائعهم فى مختلف النواحي ، حتى إذا شفى نفسه من حديث أعمامه ، ختمه بقوله :

فإن يمض أشياخى ، فلم يمض مجدها ولا دثرت تلك العلى ، والمآثر  
نشيد كما شادوا ، وبنى كما بنوا لنا شرف ماض ، وآخر حاضر  
وتلك مقدمة للحديث عن وقائع ناصر الدولة وسيف الدولة ، بدأه بتسجيل فضلهم على أمير المؤمنين ، فقد رداه إلى سرير الملك ، بعد أن شرده الثوار عنه ، وعدد وقائع سيف الدولة مع أعداء أمير المؤمنين ، وهنا ، تتبين العصبية العربية ، التى كانت تتميز من الغيظ ، بغضا للترك وسطوتهم الغاشمة ، إذ يقول :

وصب على الأتراك نقمة منعم رماه بكفران الصنيعة غادر

ويمضى فى تعداد مآثر الأمير ، ووقائعه فى الشام مع الإخشيد ، وعلى حدود مملكته مع الروم ، وفى بلاد العرب مع القبائل الثائرة ، والقرامطة ، ولا يتبع فى ذلك الترتيب التاريخى ، فقد يقدم ما تم سنة أربعين ، على ما حدث سنة ست وعشرين مثلاً . ونلاحظ أن معظم ما سجله أبو فراس فى تلك القصيدة ، لم يتناوله بالحديث فى قصائد خاصة ، بل اكتفى بما ذكره فيها . وسنعود إلى الحديث فى ذلك ، عندما نوازن بينه وبين المتنبى .

وبعد أن انتهى الشاعر من حديثه الطويل عن سيف الدولة ، أخذ يشيد بمآثر إخوته . ومآثر بنى عمه الأحياء ، ويحتم حديثه عنهم بقوله :

لنا في بني عى ، وأحياء إخوتى على حيث سار النيران ، سواثر  
وإنهم السادات ، والفرر التى أطول على خصمى بها وأكابر  
وهو فى هذه القصيدة الطويلة التى تبلغ خمسة وعشرين ومائتى بيت ، يرى  
نفسه غير ناهج منهج الشعراء ، الذين يصفون على مدوحىهم ، فضائل ليست لهم ،  
وأنه ليس إلا مسجلاً لفضله ، وفضل عشيرته :  
نطقت بفضلى ، وامتدحت عشيرتى وما أنا مدّاح ، وما أنا شاعر

---

## الغزل

غزل أبي فراس قصير النفس ، لا يكاد يتجاوز ما أنشأه للغزل قصدا البيتين  
والثلاثة غالباً ، مكثفياً بذلك في التعبير عما ألم به ، من انفعال سريع .

أعرف شاعرنا الحب ؟ أم أن غزله تقليدي ، لا ينبعث عن حب ولا عاطفة ؟  
أرجح أن الشاعر عرف الحب وتأثر به ، بدليل هذه القطع التي نظمها خاصة  
في النسب ، ولم يقف عند حد المقدمات التي يفتتح بها بعض قصائده ، ولم يكن  
أبو فراس ممن ينشئ الشعر إلا ترجمة لعاطفته ، وتعبيراً عما في نفسه . ولكننا  
نكاد نلحس أن هذا الحب ، ما كان يشغل من هذه النفسية الشاعرة إلا حيزاً  
محدوداً صغيراً ، لأن هذا القلب الكبير كان في شغل بكبار الأمانى ومسامى  
الآمال ، ولم يدع ذلك منه إلا فراغاً يسيراً تشغله هذه العاطفة القوية

عرف شاعرنا الحب ، ولعل من بادها تلك العاطفة كانت قريبة له ، وربما  
كانت جميلة بنت ناصر الدولة ، فإنه أنشأ قصيدة يودع بها بعض أهله <sup>(١)</sup> ، وقد  
خرجت تسمى إلى الحج . وهذه القصيدة تفيض بعواطف حارة متدفقة ، ينم عنها  
بكأوه ، ويذكىها في صدره ما امتازت به تلك الفاتنة من غرام بالصون ، وحب  
للحجاب ، حتى ليكاد وجهها تخفى معالمة على خدرها ، وها هو ذا يقص علينا  
حديثه ، يوم سافرت تلك الحبيبة المصونة ، وأعلمها جميلة :

|                                 |                                 |
|---------------------------------|---------------------------------|
| أشيعه ، والدمع من شدة الأسمى    | على خده نظم ، وفي نحره نثر      |
| رجعت ، وقلبي في سجن غيظه        | ولى لفتات نحو هودجه كثر         |
| وفيمن حوى ذاك الحجيح خريدة      | لها دون عطف السقم صونها ستر     |
| وفي السقم كف ، لا يراها عديلهما | وفي الخدر وجه ، ليس يعرفه الخدر |

(١) راجع هامش ديوان أبي فراس ص ١٨٥ .

وقد سجل في هذه القصيدة إحساسا صادقا حيا ، وإن شدة شعوره بحيوية تلك الحبيبة ، جعلته يحس كأنها تبعث الحياة فيما يحيط بها ، حتى في النبات والجماد ، فيقول :

فهل عرفات عارفات بزورها وهل شعرت تلك المشاعر والهجر ؟  
أما اخضر من ريحان مكة ما ذوى أما أعشب الوادى ؟ أما أنبت الصخر ؟  
وقد أنشأ هذه القصيدة في الغزل خاصة ، وهي أطول شعره فيه ، وربما ذاق من هذا الحب ، ما شجاه حيناً وأضناه ، حتى صح له أن يقول :

أمعنية بالعدل ، رفقاً بقلبه أيحمل ذا قلب ، ولو أنه صخر ؟!  
عذيري من اللأى يلن على الهوى أما في الهوى ، لو ذقن طعم الهوى ، عذر ؟!  
ومنكرة ما عاينت من شجوبه ولا عجب ما عاينته ، ولا نكر وقائلة : ماذا دهاك تعجبا ؟ فقلت لها : يا هذه ، أنت والدمر أبا البين ، أم بالهجر ، أم بكليهما تشارك فيما ساءنى البين ، والهجر كان صدق إحساس أبى فراس بالحب ينبوعا لتعبيرات صادقة عن عواطف صادقة ، فهو يخشى على حبيبه أن تمسه الميون بأذاها ، فيستحلفه أن يرد عليه لثامه :

أيا سافرا ، ورداء الحجل مقيم بوجنته ، لم يزل بعيشك ، رد عليك اللثام ، أخاف عليك جراح المقل فباحق حسنك أن يحتلى ولا حق وجهك أن يبتذل ويتقبل ظلم حبيبه ، بنفس راضية ، بل متلذذة بهذا الظلم : وبعض الظالمين وإن تناهى شحى الظلم ، مغفور الذنوب ويقر أنه مذنب ، وإن لم يحن ذنبا ، ويتوب عن إثم لم يقترفه : أقره بالذنب ، والذنب ذنبه ويزعم أنى ظالم فأتوب ويقصدنى بالهجر علما بأنه إلى ، على ما كان منه ، حبيب

ويجد في الهجر القصير الأجل لذة تجدد الحب :  
إنما يحسن النهاجر يوما فإذا كان دائماً فقييح  
كل هجر يدوم يوما إلى الليل ، ويفنى ، فذاك هجر مليح  
ويتخيل حبيبه وقد غاب عنه ، فيصوره في شعره ، ويتساءل : أينسأه ،  
وقد غاب عنه :

وبالدارين إنسان له في القلب داران  
إذا ماماس في القر طق ، يسعى بين أخذان  
رأيت البدر قدبا ن ، على غصن من البان  
وخدا يجتنى الور د به ، في كل إبان  
ألا يا صاحبي رحلى ، بالله أجيباني  
ترى من لست أنساه على الحالات ينساني ؟  
ويتحمل إدلاله ، ويحفظ عهده ، لأنه ليس له عنه معدى ولا متحول :  
نبوة الإدلال ليست عندنا ذنبا يعد  
قل لمن ليس له عهد : لنا عهد ، وعقد  
جملة تغنى عن التفصيل : مالى عنك بد  
إن تغيرت فما غير منا لك عهد  
ويقبل ذلة الحب ، برغم أنه أمير من بيت الملك :

وباخلة أنالتنى قليلا وقد يرضى القليل من البخيل  
قنعت به ، وكنت أظن أنى عزوف النفس عن نيل قليل  
ولكنى وجدت الحب يكسو عزيز القوم أثواب الذليل  
وما كان يرى ذل الحب إلا عزاً :

بنفسى التى أخفت ، مخافة أهلها وداعى ، وأبدت حين أبدت لنار مرأ  
فلم أر مقتولين : مثلى ومثلها أذلا ، وإن كانا لعمر الهوى عزا

ويستسلم للحب ، وإن قوبل بالجفاء :  
وكنى الرسول عن الجواب تظرفاً ، وإن كفى ، فلقد علمنا ما عنى  
قل يا رسول ، ولا تحاش ، فإنه لا بد منه ، أساء بي ، أم أحسنا  
الذنب لى فيما جناه ؛ لأننى مكنته من مهجتي ، فتمكنا  
ولكنه يشور ضد الحب ، إذا كان فيه غدر وخيانة :

الآن حين عرفت رشدى ، واغتديت على حذر  
ونهيته نفسى فانتهت ، وزجرت قلبى فانزجر  
ولقد أقام على الضلالة ، ثم أذعن ، واستقر  
الحب فيه مذلة إلا على الرجل الذكر  
هيهات ، لست أبا فراس ، إن وفيت لمن غدر  
وتلك ثورة نفسية ، تدرك الحب إذا رأى الغدر من يحب .  
هذا ، وأرجح أن الحب الذى كان بينه وبين قرييته كان حباً طاهراً عفيفاً ،  
تمحوطه شدة الصيانة من الحبيبة . وأغلب الظن أن هذه الليالى التى غلب الخمر فيها  
عقل من يهوى ، والتى يصف واحدة منها بقوله :

وزيارة من غير وعد فى ليلة طرقت بسعد  
بات الحبيب إلى الصبا ح معانقى ، خذاً لخد  
يمتار فى وناظرى ما شئت من خمر وورد  
قد كان مولاي الأجل ، فصيرته الراح عبرى  
ليست بأول منة مشكورة للراح عندى

لم تكن مع هذه القرينة المحترمة .

وقد ذكرنا أن أبا فراس قد أخذ بنصيب من اللهو ، ولعله كان يرى أن  
الحب لا يحول بينه وبين المتعة ، إذا ظفر بها .

ومن مجموع شعر أبي فراس ، نستطيع أن نرسم صورة للمرأة المثالية عنده ،

فهي البيضاء ، المتوردة الخد ، الفاترة الجفن ، ذات الشعر الفاحم ، المشوقة القد ،  
الناهدة الصدر ، الهيفاء الخصر ، في غير هزال .

وتغزل أبو فراس بالغلان كذلك ، وكانت البيئة التي عاش فيها تساعد  
عليه ، وترك من هذا الغزل مقطوعات قصيرة كذلك ، بعضها يفيض بالركة  
والحنان ، يقول :

الورد في وجنتيه      والسحر في مقلتيه  
وإن عصاني لسانى      فالقلب طوع يديه  
يا ظالما ، لست أدرى      أدعو له ، أم عليه ؟!

واسم هذا الغلام منصور ، وله غلمان آخر ، وإن كان لمنصور الغلب على  
قلب الشاعر ، ولسنا ندرى جنسيته على وجه التحقيق ، ولا إن كان هو المقصود  
بتلك الأبيات التي يتغزل فيها بمملوك فارسي ، وقد استغل الشاعر ، فيها معركة  
ذي قار ، التي كانت اقبائل العرب ، ومن بينها تغلب قبيلة الشاعر على الفرس ،  
وقد أحسن هذا الاستغلال حين قال :

بأبي شادن ، بديع الجمال      أعجمي الهوى ، فصيح الدلال  
سل سيف الهوى على ، ونادى :      يا لئار الأعمام والأحوال  
كيف أرجو من يرى الثأر عندي      خلفا من تعطف ووصال  
مادرت أسرتي بذى قار أنى      بعض من جندلوا من الأبطال  
أيها الملقى جرائر قومي      بعد ما قد مضت عليها الليالي  
« لم أكن من جناتها علم الله ، وإني بجرها اليوم صالى »

ولأبي فراس ، غير هذا الغزل الحقيقي ، غزل تقليدى يفتتح به قصائده ،  
ولا يريد به غالبا التعبير عن عواطف تجيش في نفسه . وهو في هذا الغزل يتشبه  
بالأقدمين في وقوفهم على الديار ، وسؤالهم الأطلال :

على لزج العامرية وقفة      يمل على الشوق والدمع كاتب

فلا ، وأبى العشاق ، ما أنا عاشق إذا هي لم تلعب بصبرى الملاعب  
ومن مذهبي حب الديار لأهلها وللناس فيما يعشقون مذاهب  
وفي هذا الغزل التقليدى يبدو الضعف ، والمغالاة ، والصناعة اللفظية ،  
وتكرير المعانى المألوفة ، ولا تحس بروح الغزل القوية المتدفقة ، وأى قوة  
فى قوله :

قلوب فيك دامية الجراح وأكباد مكلمة النواحي  
وحزن لا نفاذ له ، ودمع يلاحى فى الصبابة كل لاح  
أندرى ما أروح به ، وأغدو فتاة الحى : حى بنى رباح  
ألا يا هذه ، هل من مقليل لضيفان الصبابة ، أو مراح  
وترى التشبيهات المتداولة بالشمس والغزالة والأقحوان ، كما تلحظ فى  
هذا الغزل أيضاً التناقض ، وبعدم الوقوف عند المعقول . نجد ذلك فى قوله :  
إن الحبيب الذى هام الفؤاد به ينام عن طول ليل ، أنت ساهره  
ما أنس لا أنس يوم البين موقفنا والشوق ينهى البكاغنى ، ويأمره  
وقولها ، ودموع العين واكفة : « هذا الفراق الذى كنا نحاذره »  
فحبيب تكف دموعه ، ويحذر الفراق ، لا ينام طول ليل يسهره صاحبه .  
نلاحظ فى غزل أبى فراس ، سواء الحقيقى منه والتقليدى ، أنه غزل فارس ،  
تلمس فيه روح الفتوة ، وتجد منشوراً بين أبياته لغة الفرسان المحاربين ، ويأخذ  
من هذه اللغة تشبيهاته واستعاراته ، قسمه يقول :

أغرّن على قلبى ، بخيل من الهوى فطارد عنهن الغزال المغازل  
بأسهم لفظ ، لم تركب نصالها وأسياف لحظ ، ماجلتها الصياقل  
وقائع قتلى الحب فيها كثيرة ولم يشتهر سيف ، ولا هز ذابل  
أراميتى ، كل السهام مصيبة وأنت لى الرامى ، فكلى مقاتل  
ويقول متعجباً ، كيف يمد حبيبه جيش سقامه بالهجر ، فينصره :

بالله ربك ، لم فتنت بصبره ونصرت بالهجران جيش سقامه  
وفي سبيل طاعة الحب ، قد استشهد الصبر والسلو :  
مالى بكتمان هوى شادن عيني له عين على القلب  
عرضت صبرى وسلوى له فاستشهدا في طاعة الحب  
ويشبه طرة من يحب بالزرد المضاعف :

ومرند بطرة مسدولة الرقارف  
كأنها مسبلة من زرد مضاعف  
وأبو فراس حين يجعل الغزل مقدمة لأغراض أخرى ، يجتهد غالبا في أن  
يجعل روح الغزل مناسبة لروح الموضوع الذى يقصد إليه ، وهل أنسب من هذا  
الغزل العاتب يبدأ به عتابه لسيف الدولة :

أما لجميل عندكن ثواب ؟ ! ولا لمسىء عندكن متاب ؟ !  
أو أنسب من البدء بإهداء التحية لمن يحبها ، في قصيدة يحب بها إخوانه  
في الموصل ، إذ يقول :  
سلام ، رأنح ، غادى على ساكنة الوادى  
أو من البدء بهذا الغزل الحزين ، الذى يشكو الفراق ، في قصيدة أرسلها  
إلى أخيه ، وهو أسير :

فديتك ، إني للصبابة صاحب وللنوم ، مذ زال الخليط ، بجانب  
وما أدعى أن الخطوب فجأتني لقد خبرتني بالفراق النواعب  
ولكن الشاعر في أغلب الأحيان ، ما كان يحسن التخلص من الغزل إلى  
الغرض المقصود ، بل كان انتقاله فجائيا ، وهو في ذلك يشبه البحترى زعيم شعراء  
الشام ، فما هو ذا — مثلا — يتغزل ، ويحتم غزله بقوله :

وقد عاديت ضوء الصبح حتى لطرفى عن مطالعه ازورار  
ثم ينتقل إلى الفخر قائلا ، من غير أن يحسن التخلص :

ومضطمن يرأود في عيبا سيلقاه إذا سكنت وبار  
وفي بعض الأحيان يحسن التخلص ، كما في تلك القصيدة التي بعث بها إلى  
ابن عمه أبي زهير ، وفيها يقول :

يا أخى يا أبا زهير ، ألى عندك عون على الغزال الفرير ؟!  
لم تزل مشتكاً في كل أمر ومغيثي ، وعمدتي ، ومشيري  
وهكذا يمضي في حديث ابن عمه .

وقبل أن أختم الحديث عن غزله ، أشير إلى ما يبدو في هذا الغزل حيناً ،  
من شعور أبي فراس بنفسه محبوباً ، وأنه ليس شخصاً عادياً ، ولكنه محب جدير  
أن يقابل بغبطة من محبه ، وأن يضم عليه بالفواجذ ، فتسمعه يقول :

أجلى يا أم عمرو زادك الله جمالا  
لا تبيعيني برخص إن في مثلي يغالى  
بل لقد تدلل مرة على من يحب ، حتى شكته إلى إحدى جاراتها :  
قامت إلى جاراتها تشكو بذل وشجا  
أما ترين ذا الفتى مر بنا ما عرجا  
إن كان ما ذاق الهوى فلا نجوت إن نجا  
وليس يبعد أن تعجب بأمير وسيم مثله ، بعض أولئك الجميلات ، اللاتي  
كن يرينه في غدواته وروحاته .

## الوصف

لم يكن الوصف من الأغراض الرئيسية في شعر أبي فراس ، وإنما هي تنف موزة ، يرسلها في الحين بعد الحين .

وإن في مناظر الشام ، وما يحيط بالأمير الشاب ، من مظاهر الحضارة والترف وال عمران ، لما يثير شاعرية الشاعر ، ويوحى إليه بأفضل القول ، لولا أن شاعرنا شغل بنفسه عما يحيط به .

وهو يكتفي غالبا بأن يصف الشيء كما تراه العين ، ولا يمزج ذلك بشعوره وإحساسه إلا في القليل ، كقوله يصف جسرا عقد بمنبج :

كأنما الماء عليه الجسر درج بياض ، خط فيه سطر  
كأننا يوم استتب العبر أسرة موسى ، يوم شق البحر  
فهو يمثل الجسر الدقيق بسطر ضئيل في صحيفة بيضاء ، ويشبه ما يحس به العابرون عليه بقوم موسى ، يسرون على خوف أن تغمرهم المياه وتغرقهم .  
وقل أن يمزج شعوره ، أو يستفيض في بيان هذا الشعور ، عندما يقف ، أمام منظر من مناظر الطبيعة : فهذه النار التي يجد المقرور فيها لذة الدفء ، ويحس بالعبطة بقرنها ، يغفل أبو فراس إلا عن منظرها ، فيقول :

لله برد ما أشد ، ومنظر ما كان أعجب  
جاء الغلام بناره حمراء في جمر تلهب  
فكأنما جمع الحلى ، فحرق منه ، ومذهب  
ثم انطلقت فكأنها ما بيننا ند مشعب

فهو وصف حسي ، يصف ما تراه العين ، وينسى وصف الشعور بدفء النار ، في يوم شديد البرد .

وعند ما يصف زهر الربيع على ضفاف البرك المليئة بالماء ، يكتب  
بأن يقول :

انظر إلى زهر الربيع      والماء في برك البديع  
وإذا الرياح جرت عليه في الذهاب وفي الرجوع  
نثرت على بيض الصفا      نوح بيننا خلق الدروع  
فهو لم يزدنا شعوراً بحال أزهار الربيع ، ولم يزد على أن طلب منا أن ننظر  
إليها ، أما الماء فلم يزد على أن شبهه ببيض الصفا ، فإذا مر عليه الريح جعله  
يشبه الدرع ، وليس من وجه يربط بين الاثنين سوى اللون والشكل ، اللذين  
تلاحظهما العين .

وقل مثل ذلك في وصفه للجلنار<sup>(١)</sup> المشرق على أعلى الشجر :  
كأن في رؤوسه      أصفره وأحمره  
قراصة من ذهب      في خرق معصفرة  
وهو يتشبه في ذلك بأبن المعنز . وكذلك الحال في وصفه البرك بقوله :  
وكأنما البرك الملاء تحفها      أنواع ذاك الروض والزهر  
بسط من الديباج بيض فروزت      أطرافها بفراوز خضر  
فليس تصورنا لبسط الديباج البيض ، قد فروزت أطرافها بالأخضرار ، مما  
يزيد شعورنا عمقا بهذه البرك ، فضلا عما بين البرك والبسط من خلاف ، فياه  
البرك كالمرآة تعكس ما يطل عليها من السماء الزرقاء الصافية ، أو الملبدة بالسحب ،  
وأي ذلك من بسط الديباج البيضاء .

ولكنه رق عندما وصف هبوط الليل ومغرب الشمس ، فقال :  
وفتيان صدق ، أملوا أن أزورهم      وما منهم إلا كريم ، ومنصف  
فوافيتهم ، والليل نشوان زاحف      إلى سائر الآفاق ، والشمس تطرف

فتصوير هبوط الليل على الكون ، بأنه يزحف في بطنه وهدوء إلى سائر الأفاق  
قوى ، وكذلك تصويره نظرة الشمس إلى الكون ، بعد رحلة طويلة طول  
النهار ، بأنها تطرف بعينها ، مودعة هذا الكون لاهنة ، أو متأللة لهذا الوداع .  
وقد يكون من أجل أوصاف أبي فراس قوله :

وبقعة من أحسن البقاع يبشر الرائد فيها الراعى  
بالخصب والمرتج والوساع كأنما يستر وجه القاع  
من سائر الألوان والأنواع مانسج الروم «لذى الكلاع»<sup>(١)</sup>  
من صنعة الخالق لا الصناع والماء منحط من التلاع  
كما تسيل البيض للصراع وغرد القمـرى للسماع  
ورقص الماء على الإيقاع ونشر البهار في البقاع  
وهو وصف تصويرى ، وإن كنت أجد ناشراً في هذه الصورة الوديمة ،  
تشبيه الماء بسيوف تسل للصراع ، بين تغريد الحمام ورقص الماء ونشر البهار .  
وقد أنشأ أرجوزة ، يصف فيها الصباح والسحاب ، ووصفه للصباح يزيدنا  
شعوراً بقوته وغلبته ، حين جملة طالب ثار من الظلام ، ولعله في هذا التشبيه ،  
وتشبيه الماء ببيض السيوف ، متأثر بحياته في الحرب والقتال .  
وارتفع أبو فراس في وصفه المطر ، فقد صور رعده وبرقه ، حين قال في  
أرجوزة :

من أنف الوسمى نوء صادقه منبجس ، مرتجس صواقعه  
إذا ادلم وأضاء بارقه وهدرت على الثرى شقائقه  
والوحش في أرجائه تسابقه كأنها مجفلة ، وسائقه  
أهدت إلى أربعه ودائقه قشيب روض ديجت نمارقه  
ولبست من زهر حدائقه سموط حلى فصلت عقاقه

---

(١) ذو الكلاع : من أزواء اليمين .

كما صور إطباق السحاب على الأرض ، ثم انقشاعه ، صورة قوية في قطعة يقول فيها :

حتى إذا ما اتصلت أسبابه وضربت على الثرى قبابه  
وامتد في أرجائها أطنايه وشرقت بمائها شعابه  
أجلى عن وجه الثرى اكتتابه وحليت في نورها رحابه  
وفي قول أبي فراس : اتصلت أسبابه ، تصوير لتجمعه في قوة ، وفي ضرب قبابه على الثرى ، وامتداد الأطنايه في أرجائه ، تصوير لقربه وثباته ، والمهم أن هذا التصوير ، يعطى المرء شعوراً بما يريد الشاعر تصويره ، وإحساساً عميقاً به ، وتلك مهمة الشاعر الأصيلة .

وللشاعر قطعة ، وصف فيها منازلهم بمنبج ، متخيلاً لها ، عندما كان أسيراً في بلاد الروم ، وقد ذكرنا بعضها في باب أسره ، ورأيناه قد أكثر فيها من ذكر أسماء الأماكن الحبيبة إلى نفسه ، وذكر الأماكن التي يثير في نفس الشاعر ما دار فيها : من ذكريات عذبة محببة إلى القلوب .

وبعد فليس في أوصاف أبي فراس ، ما يضمنه في مصاف شعراء الوصف .

## أرجوزته في الصيد

كان أبو فراس مغرماً بالصيد ، يقضى فيه بعض وقت فراغه ، مع ثلة من صحبه ، شأنه في ذلك شأن كثير من الأمراء الفرسان ، يجدون في الصيد ملهامة سامية ، وقد أنتج لنا هذا الحب أرجوزة مطولة ، يصف فيها الشاعر يوماً قضاه في الصيد . وتكاد تكون هذه الأرجوزة وحيدة في اللغة العربية ، بطولها ، وباشتمالها على هذا الوصف القصصى ، الذى فيه حوار وتقاش .  
وهذه الأرجوزة تمتاز عن أرجوزة المتنبي التى أنشأها فى الطرد ، وبدأها بقوله :

ومنزل ليس لنا بمنزل ولا لغير الغاديات المهطل  
فإن أبا الطيب قد أنشأ أرجوزته ، وقد سمع وصف الرحلة ، أما أبو فراس فقد وصف ما عمل . وكان المتنبي قليل الرغبة فى الخروج إلى الصيد ، على عكس أبى فراس ، الذى كان يجد فى الصيد وسيلة من وسائل السرور ، يرفه بها عن نفسه متاعبه . وكان أغلب حديث المتنبي وصفاً للكلب الذى طارد الظبي ، أما أبو فراس ، فلم يقف عند ذلك . كما أن أرجوزة أبى فراس أضعاف أرجوزة أبى الطيب .

أرجوزة أبى فراس من بين هذه القطع ، ذات الوحدة فى الفكرة والغرض . ولعله اختار بحر الرجز ؛ لأنه البحر التقليدى لهذا النوع من الوصف . واختار التشطير ، بأن تكون القافية ملتزمة فى شطرين فقط ؛ ليطيل حتى يستوفى ما عنده ، أما المتنبي فقد التزم اللام فى كل شطراته .

بدأ أبو فراس أرجوزته ، بذكر ما يختلج فى صدر أمير طموح مثله ، مثله الأعلى نيل المجد وتذوق السرور ، ويأسف أبو فراس أنه لم يظفر بهذه السعادة

إلا في أيام قلائل ، منها هذا اليوم الذى يصفه بتلك الأرجوزة :

ما العمر ما طالت به الدهور      العمر ما تم به السرور  
أيام عزى ، ونفاذ أمرى      هى التى أحسبها من عمرى  
ما أجور الدهر على بنيه      وأغدر الدهر بمن يصفيه  
لوشئت مما قد قللن جدا      عددت أيام السرور عدا  
أنعت يوما سرلى بالشام      ألد ما سر من الأيام  
ها هو ذا أبو فراس يستعد للرحلة ، فدعا بالصقار ، وطلب منه أن يهيئ له  
سبعة كبارا : اثنان للأرانب ، وخمسة للغزلان ، كما طلب أن تهيأ كلاب الصيد  
والفهاد والبزاة ، وأن يعد الطباخ له ما هو فى حاجة إليه من الطعام والشراب ،  
حتى إذا أعد ذلك كله ، بدأ الأمير يختار صحابته ، وهنا يقف طويلا ، ليحسن  
اختيارهم ، فلا يريد أن يستصحب الثقلاء ، ولا عددا كثيرا . وانتهى الأمر  
باختيار زهاء عشرين صاحبا ، من أهل الفضل والنجابة ، ولننصت إليه يحدثنا  
عن اختيار صحبه :

بالله ، لا تستصحبوا ثقيلًا      واجتنبوا الكثرة والفضولا  
ردوا فلانا ، وخذوا فلانا      وضمنونى صيدكم ضمنا  
فاخترت لما وقفوا طويلا      عشرين ، أو فوقها قليلا  
عصابة ، أكرم بها عصابة      معروفة بالفضل والنجابة

ها هى ذى معدات الرحلة قد تمت ، وهام أولاء الصحب يحفون بالأمر ،  
وها هو ذا الركب يسير متجهاً إلى عين باصر ، وهو مكان يبعد عن منبعج مسيرة  
يوم ، قضاء الركب فى بهجة وطرب ، حتى وصلوا إليه قبيل الغروب ، وهناك  
ضربوا خيامهم ، وأقاموا ليلتهم ، حتى إذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود  
من الفجر ، بدأ الدراج يرسل أغانيه العذبة فى الفضاء ، غافلا عما يضمره له  
القضاء :

وأخذ الدراج في الصباح مكتنفاً من سائر النواحي  
في غفلة عنا، وفي ضلال ونحن قد زرناه بالآجال  
يطرب للصبح، وليس يدرى أن المنايا في طلوع الفجر  
وما هو إلا أن أدت الجماعة صلاة الصبح، حتى بدأت البراة تخرج،  
والخيول تسرج، والفهاد يمضي منفرداً، متربصاً للظباء، وأبو فراس يسير  
في صف من الرجال. وما كادت الجماعة تستعد، حتى أقبل غلام يعلن رؤيته  
الظبية، ظنّها أبو فراس يقظى، ولكنها كانت نائمة، فلم يخطئها أبو فراس بنباله.  
وهنا تضج الكلاب تطلب الصيد جاهدة.

وقد استصحب أبو فراس معه بعض غيد الغلمان، فإذا فاخر أبو فراس  
الجماعة ببازله، طالباً المبارزة به، تقدم أحد هؤلاء الغلمان، مبدئياً استعداداً لهذا  
البراز، فيذهب مع أبي فراس وراء النهر، وتطير دراجة أمامهما؛ فيرسل عليها  
الغلام بازيه، ولكنه يخطئها، فيتهم عليه أبو فراس:  
صحت: أهذا الباز، أم دجاجة؟! ليت جناحيه على دراجة  
فيحمر وجه الأغيد، ويعتذر بسوء المكان، ويطلب منه أن يذهب إلى  
مكان مكشوف؛ فيتبرم أبو فراس ويقول:

نحن جميعاً في مكان واحد فلا تعلق بالكلام البارد  
ويزيد في التهمك به، فيطلب منه ألا يستصحبه مرة أخرى في الصيد، بل  
الأجدر به أن يترك في الدار مع الدباشي<sup>(١)</sup> والقماري<sup>(٢)</sup>، فيزداد خجلاً، فيرق له  
أبو فراس، ويخرجه من ورطته، بأن يعيره آخر، أفضل مما معه، على أن يكون  
عارية مضمونة، يشهد عليها من حوله. وهنا يصف أبو فراس هذا البازي، فيقول:  
جئت بباز حسن، وهبرج<sup>(٣)</sup> دون العقاب وفويق الرميح<sup>(٤)</sup>

(٢) ضرب من الحمام.

(٤) طير للصيد.

(١) طيور تفرق.

(٣) سمين.

زين لرائيه ، وفوق الزين ينظر من نارين في غارين  
كان فوق صدره والهادى<sup>(١)</sup> آثار مشى الذر في الرماد  
ذى منسر فخم ، وعين غائرة وأخذ مثل الجبال وافرة  
ثم ، لتنصت إلى هذا المزاح الذى دار بينه وبين هذا الأغيد الذى سر  
لامتلاك هذا البازى ، وأبو فراس يستحلفه أن يعيده إليه ، ولكن الغلام يأبى  
أن يحلف ، معتذراً بأن كلمته كيميته ، وينتهى الأمر بأن يعلن أبو فراس هيبته له  
بقبلة منه ، فيصد الغلام ويخجل ، ويأسف أبو فراس على هذا المزاح ، ولا يزال  
بالغلام حتى يمسخ عنه الخجل :

سر ، وقال : هات ؛ قلت مهلا احلف على الرد ؛ فقال : كلا  
أما يمينى فهى عندى غالية وكلمتى ، مثل يمينى ، وافيه  
قلت : خذه ، هبة بقبلة فصد عني ، وعلته خجلة  
ثم ندمت غاية الندامة ولمت نفسى أكثر الملامة  
على مزاحى ، والرجال حضر وهو يزيد خجلاً ، ويحصر  
فلم أزل أمسحه ، حتى انبسط وهش للصيد قليلا ، ونشط  
وهذا نوع من المزاح الذى كان يحدث فى مثل تلك الرحلة .

ويظهر أن عين باصر ، لم تشف أنفسهم من الصيد ، فانصرفوا عنها إلى نهر  
الوادى ، والطير فيه عدد الجراد ، وهناك أرسل شاهينين ، فأصابا أربعة طيور :  
ثلاثة خضرا وأبقع ذبحوها ، وأرسلوا الشاهينين مرة أخرى ، فجذلا أربعة مثل  
الأول ، وظل أبو فراس وصحبه يصطادون .

حتى أخذنا ما أردنا منها ثم انصرفنا ، راغبين عنها  
إلى كراكى بقرب النهر عشرا أراها ، أو فويق العشر  
وينصرف البازى إلى الكراكى فيصيدها ، ويصيح أبو فراس بالطباخ ألا

يتوانى فى إحضار ما اصطادوه وطهيه .

لم يكتف أبو فراس فى رحلته إلى الصيد بما نال ، بل مضى ينتجع الصحراء ، يطلب فيها الوحوش والظباء ، فانتجع وادياً ليس بمطروق ، قد رواه الوسمى ، فعن له فيه سرب من الظباء ، فأطلق عليه صقوره وفهاده ، حتى صاد منها ما صاد ، وحين أخذ حظه من الصحراء ، انصرف إلى الجبل ، يصطاد منه الوعول والكباش ؛

ثم انصرفنا ، والبغال موقرة فى ليلة مثل الصباح مسفرة حتى أتينا رحلنا بليل وقد سبقنا بجياد الخيل ثم نزلنا ، فطرحنا الصيد لما عدونا مائة وزيدا فلم نزل نشوى ، ونقى ، ونصب حتى طلبت صاحيا ، فلم أصب شربا ، كما عن ، من الزقاق بغير ترتيب ، وغير ساقى ولم نزل سبع ليال عددا أسعد من راح ، وأحظى من غدا وهكذا استطاع أبو فراس أن يقص علينا متعة ، من متعه ، فى تلك الأرجوزة الرائعة .

## الشكوى والعتاب

بينما مضى كيف أتر الأسر في أبي فراس ، فجعله حزينا شاكيا ، وقد ظل طول مدة أسره ، يرسل من الشعر ما يدل على قلب يذوب أسي ، ونفس تتحرق شوقا إلى الحرية ، وتحقيق ما ترجوه من الأحلام ، وكان هذا الأمر أكبر باعث له على الشكوى وعتاب سيف الدولة ، وقد كان يرق أحيانا في عتابه ، ويستعطف ، وحينما يقسو ويشدد ، ولسنا في حاجة إلى أن نطيل في ذلك ، فقد ضربنا عليه الأمثلة ، في الفصل الذي عقدناه لأبي فراس في الأسر .

ولم يكن عند أبي فراس ما يحمله على الشكوى قبل أسره ، اللهم إلا ما كان بينه وبين بعض أبناء أسرته : من نفور ، رأينا صورة منه في الفصل الذي عقدناه ، لبيان صلته بأسرته ، وإلا ما كان يلقاه من أصدقائه : من غدر ونكث بالمهود ؛ فكان يضح بالشكوى ، قائلا :

أعيا على أخ ، وثقت بوجه وأمنت في الحالات عقي غدره  
وخبرت هذا الدهر خبرة ناقد حتى أنست ، بخيره ، وبشره  
لا أشتري بعد التجارب صاحباً إلا وددت بأنني لم أسره  
من كل غدار يقر بذنبه فيكون أعظم ذنبه في عذره  
وإلا ما كان يلققه عليه حساده وأعداؤه ، وما كانوا يذيمونه عنه ، حتى  
لقد امتلأ قلبه حيناً باليأس من الناس ووفائهم ، فقال :

لمن أعاتب ؟ مالي ؟ أين يذهب بي قد صرح الدهر لي بالمنع واليأس  
أبغى الوفاء بدهر ، لا وفاء له كأنني جاهل بالدهر ، والناس

## الرثاء

ليس لأبي فراس من المراثى إلا القليل ، فجموع ماله في الرثاء والعزاء  
عشر قطع ، رثى غلاما له بواحدة ، وأخته بأخرى ، وأمه بثالثة ، وعزى سيف  
الدولة في ابنه وأخته بثلاث ، ورثى أبا المرجى بن ناصر الدولة باثنتين ، وأبا وائل  
بقصيدة ، وأبا المشائر ببيتين .

ويحق لنا أن نتساءل هنا عن السبب ، الذى من أجله لم يرث أبو فراس  
ابن عمه سيف الدولة ، مع ما كان يضمه له من الحب والوفاء ، كما ذكرنا ،  
ولعل سبب ذلك يعود إلى شغل أبي فراس بتحقيق المطامع ، التى تأججت في  
صدره ، بعد وفاة سيف الدولة ، تلك المطامع التى شغلته حتى عن تقدير مركزه  
التقدير الصحيح ، ففاسر ، وانتهت مغامرته بالإخفاق ، على أنه مما لا شك فيه  
عندى أن أبا فراس قد تغير في أعماق قلبه ، من ناحية ابن عمه ، لطول إهماله  
إياه ، في الأسر ، ويدلنا على ذلك أنه لم يشكر سيف الدولة بعد خلاصه ،  
ولم يمدحه .

رثى أبو فراس غلاما له ببيتين ، فيها تلك اللوعة ، التى تلم بقلب الأب ،  
عند ما يعجل بأبنه قبله ، فيتمنى أن لو كان هو مكانه ، قال :

أعزز على بأن يبيت موسدا وأيت أئدبه مع الإخوان  
ولقد وددت بأن أكون مكانه تحت التراب ، وأن يكون مكانى  
ولسنا نستطيع بهذين البيتين ، أن نضع أبا فراس مع هؤلاء الشعراء ، الذين  
أجادوا تصوير لوعتهم ، على فقد أبنائهم كابن الرومى ، وأبى الحسن التهامى .  
ورثى أخته رثاء موجزا ، أودعه ألمه وحسرتة ، ويظهر أن هذه الأخت لم  
تسكن متزوجة ، ولم تسكن شقيقة له ، بل كانت أخته لأبيه ، نفهم ذلك من

أنه لم يعز أحداً غير نفسه ، ولو كانت أخته لأمه أيضاً لعزاها ، أو لتحدث عن  
حزنها على ابتها ، ولكنه يتحدث عنها ، كأنه وحده المصاب بها ، إذ يقول :  
عقيلتي استلبت من يدي ولما أبعتها ، ولما أهب  
وكنت أفيك ، إلى أن رمتك يد الدهر ، من حيث لا أحتسب  
ولا أنكر أن البيت الأول ضعيف ، فلم تجر العادة ببيع العقيلة أو هبتها  
حتى ينفي ذلك ، ولكن لعله أراد ما أراد ابن الرومي ، حين رثي ابنه ، فأبدع ،  
إذ قال :

وما سرني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد  
ويظهر أن أبا فراس قد حزن على أخته حزناً بالغاً ، جعله يجد الموت  
سمة الوفاء :

أنزعم أنك خدن الوفاء وقد حجب الموت من قد حجب  
فإن كنت تصدق فيما تقول ، فمت قبل موتك ، مع من تحب  
وماتت أخت سيف الدولة ، وهو في الأسر ، فأرسل إليه من مغتربه قصيدة  
يشاركه فيها حزنه وآلامه ، وقد أجاد التعبير عن هذه المشاركة ، حين قال :  
بي بعض ما بك : من حزن ومن جزع وقد لجأت إلى صبر ، فلم أجد  
لم يمنعني بعدى عنك من حزن هي المؤاساة في قرب ، وفي بعد  
لأشركتك في البأساء ، إن طرقت كما شركتك في النماء ، والرغد  
وسوف نوازن بين قصيدته وقصيدة المتنبي في الغرض نفسه .

ولما طال حزن سيف الدولة على أخته ، كتب إليه :  
قولا لهذا السيد الماجد قول حزين ، مثله ، فاقد :  
هيئات ، ما في الناس من خالد لا بد من فقد ، ومن فاقد  
( م - ٩ )

كن المعزى ، لا المعزى به إن كان لا بد من الواحد  
ولما مات أبو المكارم بن سيف الدولة ، رثاه ، وعزى أباه عنه ، ويبدو من  
شعر أبي فراس ، أن العنصر الغالب على سيف الدولة ، كان عنصر الجزع عند  
وفاة أخته ، وعنصر التسليم والصبر عند وفاة ابنه ، مما دعا أبا فراس إلى الإشادة  
بذلك ، فى قوله :

يبكى الرجال ، وسيف الدين مبتسم حتى عن ابنك تعطى الصبر ، يا جيل  
لم يجهل القوم منه فضل ما عرفوا لكن عرفت من التسليم ما جهلوا  
ولأبى فراس قصيدة عاطفية ، يرثى بها أبا المرجى جابر بن ناصر الدولة ،  
وكان رثاؤه منبعثاً عن حب ، تحسه فى قوله :

أبا المرجى ، غير حزنى دارس أبداً عليك وغير قلبى سالى  
ولئن هلكت ، فما الوفاء بهالك ولئن بليت ، فما الوفاء بىالى  
ورثى أبا العشائر ، وقد مات أسيراً فى بلاد الروم ، بيتين أجاد فى أولهما ،  
عندما ما قال :

أبا العشائر ، لا محلك دارس بين الضلوع ، ولا مكانك نازح  
فأنت تراه هنا يخاطبه بالهمزة ، التى هى لنداء القريب ، وفى ذلك من  
الإشعار بقرب مكانه منه ، برغم موته ، ما أكده بعد ذلك ، بأن مكانه من  
قلبه لن يندحى ، وأنه قريب منه ، مهما أمعن فى البعاد ، أما البيت الثانى وهو :  
إنى لأعلم بعد موتك أنه ما سر للأسراء يوم صالح

فلا معنى للتوكيد فيه ، لأن الأسرى ، مهما لانت حياتهم ، لا يجدون أيامهم  
صالحة ، وهو معنى واضح ، لا حاجة إلى تأكيده ، ثم ما معنى أن أبا فراس  
عرف ذلك بعد موت صاحبه ، مع أن موته لا يوحى بهذه الفكرة ، التى لا يحتاج  
فى الوصول إليها إلى موت أبى العشائر .

وسنتحدث عن رثائه لأبي وائل ، وسنوازن بينه وبين المتنبي في ذلك ، في  
الفصل الذي نعده للموازنة بينه وبين المتنبي .  
وقد سبق أن أفردنا فصلا خاصا برثاء أمه .  
وليس في رثاء أبي فراس كله نظرات عميقة ، في فلسفة الحياة ، بل كله  
حديث عن عواطفه الشخصية .

## الحكمة

لم يشتهر أبو فراس بالحكمة ، كما شهّر المتنبي معاصره ، ولكنك مع ذلك ، تستطيع أن تلمس هذه الحكمة ، في ثنايا شعره ، وفي مقطوعات قصيرة أنشأها ، يسجل بها نظرة من نظراته ، في الحياة والمجتمع . وتعليل ذلك يسير مقبول ، فأبو فراس لم يؤثر عنه أنه درس الفلسفة ، وتعمق في كتبها ، كما أنه عاش بالشام ، وكان البحتريُّ الشاعرَ المفضلَ لديهم ، ولم يكن البحتريُّ ممن يعنى عناية خاصة ، بهذا اللون من القريض ، وكان يعدّه خروجاً على عمود الشعر .

والحكمة التي نجدّها عند شاعر بني حمدان ، تعبّر عن فكرة صرت بخاطره ، أوحى بها إليه حادث عرض ، فسجلها ، وصاغها في أسلوبه ، وساقها في الموضع اللائق بها .

أبو فراس يرى الدنيا — كما ذكرنا — متقلّبة لا تثبت على حال ، فالنعمّة لا تدوم ، والأمور تنتقل من الضد إلى الضد .

هل ترى النعمة دامت      لصغير ، أو كبير ؟ !

وإذا كانت الدنيا لا تثبت على حال ، فالواجب مقابلة أحداثها بالصبر ، وعدم المبالاة :

خفّض عليك ، ولا تكن قلق الحشا      مما يكون ، وعله ، وعساه  
فالدهر أقصر مدّة مما ترى      وعسالك أن تكفى الذي تخشاه  
وتلك نظرة ، عميقة ، صادقة .

ويرى الموت خيراً ما يردع الإنسان عن ارتكاب الفى ، إذ هناك كلُّ مجزى بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

أما يردع الموت أهل النهى      ويمنع عن غيّه من غوى ؟ !

أما معاملته للناس ، فالحزم عنوان حكمته ، وإن كان يرى إسداء النعمة أفضل ، مهما قوبلت بالنكران :

فما نعمة مكفورة ، قد صنعتها إلى غير ذى شكر ، بما نعتى أخرى  
سأتى جميلا ، ما حيت ، فإننى إذا لم أفد شكرا ، أفدت به أجرا  
ولا يرى الحلم مما يخرق الهيبة ، أو يشينها :

يقولون : لا تخرق بحلمك هيبة وأحسن شئ زين الهيبة ، الحلم  
فلا تترك العفو عن كل زلة فما العفو مذموم ، وإن عظم الجرم  
ولكنه ما كان يتردد فى استعمال الشدة ، إذا كانت ضرورية ، محمودة العاقبة :  
ولست أرى فساداً ، فى فساد يجر على فريقه صلاحاً  
أما اللئيم فما كان يرى الرفق فى معاملته إلا عجزاً :

فى الناس إن قدشتهم من لا يعرك ، أو تذله  
فاترك مجاملة اللئيم : فإن فيها العجز كله  
وفى ديوانه حكم منشورة عن الصداقة والأصدقاء ، فهو يرى صلة الصداقة  
الصادقة ، فوق صلة الأخوة :

وما أخوك الذى يدنو به نسب لكن أخوك الذى تصفو ضمائر  
وفى سبيل هذه الصداقة ، تهون التضحية حتى بالنفس . والصداقة الحققة  
الخالصة ، هى التى لا تبتغى على ما تقدم أجراً ، ولا تحطمها العقوبة :  
كذلك الوداد المحض ، لا يبتغى له ثواب ، ولا يخشى عليه عقاب  
وخير الأصدقاء عنده ، هو هذا الذى يفيض بشره على صديقه . ويرى  
فى البشر والطلاقة ، خير ما يسيل الضغينة من القلوب :

وأحب إخوانى إلى أبشهم بصديقه ، فى سره ، أو جهره  
لا خير فى بر الفتى ، ما لم يكن أصفى مشارب بره ، فى بشره  
ألقى الفتى ، فأريد فائض بشره وأجل أن أرضى بفائض بره

با رب مضطغن القواد ، لقيته بطلاقة ، فسللت ما فى صدره  
وحينا يدعو إلى الحذر من الناس ، وعدم الاغترار بما قد يبدوونه من ود :  
فلا تغترر بالناس ، ما كل من ترى أخاك ، إذا أوضعت فى الأمر ، أوضعا  
بل يضج بالشكوى ، حين يخيب ظنه فى صديق ، فيعلن أن الصداقة إذا  
وضعت على محك الاختبار ، بان زيفها ، وقلة غنائها .

وكانت همته العالية مصدرا لنظرات صاغها حكمة ، فالإنسان جدير به أن  
يتسامى إلى معالى الأمور ، وليس العلا خفيا ، ولا الطرق إليه غامضة ، ولكن  
الإنسان يضل فى السعى ، فلا يصل إلى الهدف :  
لعمرك ، ما طرق المعالى خفية ولكن بعض السعى ، ليس بقاصد  
وأعظم ما يحتاج إليه المرء للوصول إلى المجد ، هو الجد ، وبذل المال ، وبدونهما  
لا تتحقق الآمال :

وكيف ينال المجد ، والجسم وادع وكيف يحاز المجد ، والوفر وافر  
ويقتنع بأن تحقيق الآمال ، لا يكون إلا بالاغتراب :  
والمرء ليس ببائع فى أرضه كالصقر ، ليس بصائد فى وكره  
وقد بينا فيما مضى ، سر هذه النظرة .

ويرى النفوس المجاهدة فى حاجة أحيانا ، إلى أن تجلو غنائها ، بالهزل  
والمزاح ، على شريطة أن يكون مزاحا نبيلًا :

أرواح القلب ببعض الهزل تجاهلا منى ، بغير جهل  
أمزح فيه ، مزح أهل الفضل والمزح أحيانا ، جلاء العقل  
والمال لا يراد ، ولا يسعى إليه ، إذا كان الذل وفقدان العرض فى سبيله :  
وما حاجتى فى المال ، أبغى وفوره إذا لم أفر عرضى ، فلا وفر الوفر  
وليس الغنى إلا غنى النفس ، ولو ترك المرء لمطامعه العنان ، ما كفاه كل  
ما فوق البسيطة :

إن الغنى ، هو الغنى بنفسه ولو أنه عارى للناكب ، حاف  
ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت ، فكل شيء كاف  
وهو لذلك لا يقدر الناس إلا بجوهر نفوسهم ، لا بهذا العرض الزائل  
من المال :

غنى النفس لمن يعقل ، خسر من غنى المال  
وقضل الناس في الأنفس ، ليس الفضل في الحال  
ولا ينال المجد إلا بالخطرة ، والإقدام ، وإن كان فيهما الموت والهلاك ،  
أما إثارة السلامة ، فدعاة إلى الرضا بالذل والهوان :  
فقلن له : السلامة خير غنم وإن الذل في ذاك المقال  
وتلك نظرة فارس إلى الحياة .

---

## المدح

لم يمدح أبو فراس أحداً إلا سيف الدولة ، وقد ذكرنا حين تحدثنا عن صلته بأميره ، أن هذه الصلة كانت مؤسسة على الحب والإعجاب ، فلم يكن مدح أبي فراس لسيف الدولة منبعثاً ، إلا من عاطفة عميقة صادقة ، وقد ترك لنا في شعره صورة للأمير ، لا تختلف عن الصورة التي رسمها له معاصروه من الشعراء ، فهو أمير عربي ، وقف حياته على قتال أعدائه ، من العرب الثأرين حيناً ، وأعدائه ، من الروم المجاورين لمملكته ، حيناً آخر ، وهو في ميدان القتال ، مقدم باسل . وإنك ترى هذه الصورة في كل مدح ، أنشأه أبو فراس في الأمير ، ولعل من أجل هذه الصور قوله :

قد ضج جيشك من طول القتال به      وقد شكتك إلينا الخيل ، والإبل  
وقد درى الروم مذجاورت أرضهم      ان ليس يصممهم سهل ، ولا جبل  
في كل يوم تزور الثغر ، لا ضجر      يثنيك عنه ، ولا شغل ، ولا ملل  
وهذا الجانب من جوانب حياة الأمير ، هو الذي كان يجذب انتباه الشاعر إليه ، أكثر من بقية جوانبه ، حتى إن ناحية الكرم ، وهي ناحية بارزة فيه تمام البروز ، لم تسترع نظر شاعرنا كثيراً ، فلم يرددها إلا قليلاً ، مثل قوله فيه :  
يا باذل النفس والأموال مبتسماً      أما يهولك ، لا موت ، ولا عدم ؟  
وتعليل ذلك يسير واضح ، فإن أميراً كأبي فراس ، لا يليق بكرامته أن يقرض من الشعر ، ما يشتم منه راحة الاستجداء .

## الاخوانيات

هذا ضرب من الشعر ، أجاد أبو فراس تصوير عواطفه وإخلاصه فيه ،  
فلقد ربطت صلة الود ، بينه وبين كثير من رجالات عصره وأقربائه ، وكان  
الشعر هو الرسول بينه وبينهم ، يتبادلونه إن فارق أحدهم صاحبه ، أو تاقى رسالة  
منه ، أو بدا له أن يعاتبه ، أو يستعطفه .

والظاهر أن أبا فراس ، كان ممن يحسن معاملة أحمائه ، ويخلص لهم ،  
ويضمر لهم في قلبه فيضا من عواطف الصداقة الخالصة ، والود الثابت  
المتين ، ويحفظ التاريخ أسماء جماعة من الأصدقاء ، الذين أخلص لهم  
أبو فراس ، وأخلصوا له ، ومن هؤلاء أبو محمد جعفر ، وأبو أحمد عبد الله ، ابنا  
ورقاء الشيباني ، ويقول عنهما الثعالبي : « إنهما من رؤساء عرب الشام ، وقوادها ،  
والمختصين بسيف الدولة ، وما منهما إلا أديب شاعر ، جواد ممدح ، وبينهما وبين  
أبي فراس مجاوبات » ، فيها الحب الخالص والإعجاب أحيانا ، وفيها العتب  
الرفيق حيناً آخر ، يصدره بمثل قوله :

أثناني من بنى ورقاء قول      ألد جنى من الماء القراح  
وأطيب من نسيم الروض ، حفت      به اللذات : من روح ، وراح  
وتبكي في نواحيه الفوادي      بأدمعها ، وتبتسم الأقاحي  
ولو أني اقترحت على زمانى      لكنتم يا بنى ورقا اقتراحي  
أما الإعجاب الذي كان يملأ قلوب هؤلاء الأصدقاء ، فتلمسه في قول أبي  
فراس السابق ، وفي قول أبي أحمد ، يجيب أبا فراس عن قصيدته الرائية المطولة ،  
وفيها يقول :

تصفحت ما أنفذته ، فوجدته      كما استودعت نظم العقود الجواهر

عرائس ، يجلوها عليك خدورها      ولكنما تلك الخـدور دفاتر  
ومن هؤلاء قاضي حلب : أبو الحصين علي بن عبد الملك ، قال ابن خالويه :  
« كان بينهما مودة أكيدة ، ومكاتبات بالشعر » ، ويظهر أن أبا الحصين كان  
ممن يشجعون أبا فراس ، على قول الشعر ، ويلحون نبوغه فيه ، فيقومه له ،  
ويثقفه ، وكان أبو فراس يعده أستاذاً له ، يأخذ عنه ، ويضمـر له الحب والإعجاب ،  
كما نستطيع أن نفهم ذلك من قوله ، وقد أزمع أبو الحصين سفرا :

يا طول شوقي ، إن كان الرحيل غداً      لا فرق الله فيما بيننا أبداً  
يا من أضافه في قرب ، وفي بعد      ومن أخالسه إن غاب ، أو شهدا  
راع الفراق فؤاداً ، كنت تؤنسه      وذو بين الجفون الدمع والسهدا  
لا يبعد الله شخصاً ، لا أرى أنسا      ولا تطيب لي الدنيا ، إذا بعدا  
أضحى وأضحيت ، في سر وفي علن      أعده والدي ، إذ عدني ولدا  
ما زال ينظم في الشعر مجتهداً      فضلا ، وأنظم فيه الشعر مجتهداً  
حتى اعترفت ، وعزتي فضائله      وفات سبعا ، وحاز الفضل منفردا

ولا ريب أن أبا فراس متواضع في ذلك غاية التواضع ، لأن شعره يفوق  
شعر أبي الحصين ، ويمتاز عليه امتيازاً بينا ، ولكن سن أبي الحصين على ما يظهر  
كانت تدفع أبا فراس ، إلى هذا الاحترام ، المبني على الحب . ولقد شارك الشاعر  
قاضي حلب ، فيما نزل به من خطب ، يوم أسر ابنه : أبو محمد ، وأبو القاسم .  
وقد تبودلت رسائل كثيرة ، تفيض بالود بينه وبين ابن عمه : أبي زهير  
مهمل ، كما أرسل كثيراً منها إلى أخيه أبي الهيجاء .

والحق أن الرسائل التي تبودلت بين أبي فراس ، وصحبه ، وأهله ، تعد من  
الأدب الرفيع : صدق عاطفة ، وقوة أداء .

ويبدو ، كما ذكرنا ، أن أبا فراس كان يعامل صحبه بالرفق واللين ، ويسبق  
عليهم حبه وعطفه ، وقد رسم في شعره نماذج لهذا الرفق بالأصدقاء ، فحينما يقول :

لئن ألفتني ملكا مطاعا فإنك واجدى عبد الصديق  
وحينا يقول :

ما كنت ، مذكنت ، إلا طوع خلائي      ليست مؤاخذة الإخوان من شأني  
يجنى الخليل ، فأستحلى جنائته      حتى أدل على عفوى ، وإحسانى  
إذا خيلى لم تكثر إساءته      فأين موقع إحسانى ، وغفرانى  
يجنى على ، وأحنو صالحا ، أبدا      لا شيء أحسن من حان على جان  
وحينا يقول :

وإذا وجدت على الصديق شكوته      سرا إليه ، وفى المحافل أشكر  
وتلك وغيرها نماذج للأدب الرفيع فى الصداقة .  
ولا ريب فى أن أبا فراس ، لقي من بعض أصدقائه مرارة الغدر ، ونكث  
العهد ، ولا سيما حين وقع أسيراً ، فسمعنا منه كثيراً ، من شكوى الأصدقاء ،  
والتألم من خيانتهم ، وذلك منشور هنا وهناك فى الروميات .

## ديوانه

لم يجمع أبو فراس أشعاره بنفسه ، وإنما كان يدفعها إلى أحد أساتذته المعجبين به : أبي عبد الله الحسين بن خالويه ، وهو من أشهر علماء البلاط الحمداني ، ولعله بهذا كان يريد أن يلقيه بين يدي أستاذ ، يذيعه في الناس ، ويشرح لهم ما غمض عليهم منه ، ويبين ما فيه من إشارات تاريخية ، يدركها هو بحكم اتصاله بالأمير ، ومن أجل هذا أستبعد صحة تلك الرواية التي تدعى على أبي فراس أنه حظر على أستاذه نشر شعره ، فلو أنه كان يقصد حقاً حظر هذا النشر ، لكفى نفسه مثونة إلقائه إلى أستاذه ، بل مثونة إنشائه ، وكيف ؟ ومن هذا الشعر ما أرسل به إلى أقربائه وأصدقائه ، ومنه ما قصد به تسجيل مفاخره ومفاخر أسرته ، ولا معنى لهذا التسجيل إذا لم يشع بين الناس ، ويجرم على الألسنة ، ويحفظ في الصدور ، وتحل به الكتب ، وكان أبو فراس يعد الشعر ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، لا شيئاً يحط من قدره ، ويرغب في إخفائه ، بل لقد كانت قدرته البيانية من أسباب فخره ، وإن في مقدمة ابن خالويه ، ما يدل على أنه كان يلقيه إليه ، ثقة منه بحفظه إياه ، إذ يقول : « وما زال رحمه الله إيجاباً لحق الأدب ، ورعاية للصحبة ، وعلماً بأهل المحافظة ، يلقى إلى دون الناس شعره ... فجمعت منه ما ألقاه إلى ، وشرحته بما أرجو أن يقرنه الله عز وجل بالصواب ، والرشاد ، بمنه وطوله ، وقوته وحوله » ، ولا ينبغي أن يفهم من كلمة ابن خالويه ، أنه شرح الديوان ببيان معاني أبياته ، وإنما ذكر أحياناً الظروف التي قيلت فيها القصائد فحسب ، كما شرح الحوادث التاريخية لقصيدة الفخر الرائية ، من غير تعرض لشرح لغوى ، أو تفسير مبهم .

لست أدري الترتيب الذي اختاره ابن خالويه ، لديوان أبي فراس ، وربما

كان يضم المحدث ، الذى كان يلقي به الشاعر إليه ، إلى القديم الذى عنده ، فيكون بذلك أقرب ما يكون إلى الترتيب التاريخي . أما النسخ الباقية لنا من الديوان فغير متفقه في ترتيب قصائده ، وقد شوه نساخها شعر أبي فراس ، فحذف بعضهم بعضه ، حتى لم تبق نسخة واحدة تجمع كل شعره ، فضلاً عن المسخ الذى أصيب به كثير من ألفاظه ، حتى صار من العسير فهم النص ، في كثير من الأحيان ، والوصول إلى حقيقة معانى الشاعر . ولم تخل من هذه العيوب النسخ المطبوعة للديوان ببيروت . ومن المعجب أن شارح ديوان أبي فراس وهو عبد اللطيف البهائي ، أحد فقهاء القرن الحادى عشر ، وأحد قضاة بلغراد ، كما حقق ذلك ناشر الديوان الحديث الدكتور سامى الدهان <sup>(١)</sup> — عثر على إحدى هذه النسخ المشوهة ، فشرحها ، وجره الخطأ إلى شرح خاطئ ، وقد أشار إلى أمثلة كثيرة من هذا الخطأ ناشر الديوان ، ومن ذلك أن أبا فراس قال بيتين ، لما قتل عامل سيف الدولة على قنسرين ، فقصد قاتليه ، مطالباً لهم بدمه ، ثم كف عنهم بتوسط أبي فراس ، وهما :

فما نعمة مكفورة ، قد صنعتها إلى غير ذى شكر ، بمانعتى أخرى  
سأتى جيلاً ما حيت ، فإنتى إذا لم أفد شكراً ، أفدت به أجراً  
فوقع للشارح البيت الأول محرّفاً إلى :

فما نعمة مكفورة ، قد صنعتها إلى غير ذى شكر بما تبغى أخرى  
فلم يحقق النص بل شرح البيت بقوله : « يقول مخاطباً لسيف الدولة : إن النعمة التى صنعتها ، بعفوك عن قاتلى الصباح ، الذى وليته قنسرين ، لكونها مكفورة ، لا تقتضى أن تعاد عليهم مرة أخرى . لكن عادتي أن أفعل الجليل مدة حياتي ، فإن لم أستفد منه الشكر ، استفدت منه الأجر » . وهو بذلك الشرح لا يلحظ أن الشاعر بهذا ، يجعل الأمير فى منزلة أقل من منزلته ، إذ يخبره بأن

---

(١) ديوان أبي فراس ج ٢ ص ٢٥ .

نعمته ما دامت مكفورة ، لا يجدر به أن يسدى للمسكين نعمة أخرى ، بينما أبو فراس من عادته فعل الجميل دائماً ، شكر ، أم كفر .

كما شرح قول أبي فراس :

وفارق عمرو بن الزبير خليه وخلي أمير المؤمنين عقيلُ  
فقال : « يعنى هذا شأن الدنيا ، وشأن أهلها من الغدر ، وعدم البقاء على  
الصحبة ، كما فى قصة عمرو بن الزبير ، مع خليه ، وتخليه أمير المؤمنين سيف  
الدولة ، قبيلة عقيل ، الذين قادم ندى بن جعفر » . والواقع أن الشاعر يشير إلى  
عداوة عمرو بن الزبير ، لأخيه عبد الله ، وقيامه ضده ، وتعذيبه أصحاب أخيه ،  
ويريد بأمير المؤمنين ، على بن أبي طالب ، وقد فارقه أخوه عقيل ، ومضى إلى  
معاوية ، كما هو مشهور .

ومن شرح هذا الفقيه ، أخذ نخلة قلفاط ، فى حل بعض أبيات الديوان ،  
عند ما طبع بيروت سنة ١٩٠٠ ، وكثيراً ما يوجز ويختصر .

لم يعثر البهائى على ديوان أبي فراس كاملاً ، بل ينقصه الكثير من قصائده ،  
ولم يقف فى شرحه ، عند الإشارات التاريخية ، التى فى الديوان يوضح المراد بها ،  
ولم ينقل ما أورده ابن خالويه فى توضيحها ، بل كان التفسير اللغوى وجهته ،  
فيذكر النص ، ويشرح ما فيه من ألفاظ لغوية ، مورداً بعض ما لكلمه ، من  
مشتقات وجموع ، ومبيناً ما فى الكلام من أنواع البيان والبديع ، ومتبعاً ذلك  
بذكر المعنى الإجمالى للنص ، وكل ذلك فى إيجاز ، دفعه إليه إسراعه فى هذا  
الشرح ، فقد أتمه فى عشرين يوماً ، وكان الفراغ من إتمامه ليلة السبت ، لثلاث  
خلون من جمادى الآخرة ، سنة خمس وسبعين وألف ، وكثيراً ما كان الشارح  
يعنى نفسه من عناء الشرح ، فيقول عن البيت من الشعر : ظاهر غنى عن الشرح .  
وربما كان خفياً غامضاً .

كان ديوان أبي فراس على ما وصفنا من النقص والتشويه ، حتى هب له

أحد العلماء الناصرين ، وهو الدكتور سامي الدهان ، فأخرجه متبعاً أمثل طرق الإخراج ، ووقف عليه حقبة طويلة من السنين ، حتى استطاع أن يخرج أصح ما يمكن أن يكون إلى اليوم ، لديوان أبي فراس ، وإن من يعاني مثل ما عاناه الناصر ، ليقدر ما بذله من جهد مضن ، في التنقيب والتحقيق والاختيار ، ولا يسعنا إلا أن نشكر له جهده الموفق ، راجين منه المثابرة على إخراج ما يستطيع إخراجه من كتب المكتبة العربية ، في هذه الصورة الممتازة .

وبرغم هذا الجهد المضني ، الذي بذله الناصر الكريم ، لم يدع أنه وصل إلى المثل الأعلى الذي يبغيه ، وطلب من النقاد أن يوافوه بأرائهم في عمله المشر ، إذ قال « غير أني لم أظفر بمن يقرؤه من الدقة إلى الدقة ، يسجل نقده ، وأسجل يده ، .. وأمل أن يحظى بالناقد الحكيم ، والقارئ الكريم ، فيرد إلى معاييه ، ويبصرني بزلله » .

وعلى هذا الأساس ، أبدى بعض ملحوظات ، عنت لي بعد قراءة الديوان كله ، قراءة دارسة ناقدة ، من غير أن تقلل هذه الملاحظات اليسيرة ، من قيمة هذا الجهد المشكور ، والعمل الصالح .

وأول ما ألاحظه على الديوان ترتيبه ، فقد اتبع نهجاً صناعياً لا فنياً في هذا الترتيب ، إذ قسمه على نظام حروف القوافي ، وإني أؤثر على هذا نظامين آخرين للترتيب : هما الترتيب التاريخي ، والترتيب الموضوعي ، ذلك أن الترتيب على حسب القوافي ليس له قيمة ما ، وليس له من فائدة سوى سهولة العثور على القصيدة في الديوان ، ويغني عن ذلك فهرس يوضع في آخر الكتاب ؛ لتسهيل المراجعة ، أما الترتيب التاريخي ، فيساعد على تتبع التدرج الفني للشاعر ، ويعين على معرفة أثر الزمن ، في نفس الشاعر ونظراته إلى الحياة ، وربما كان الترتيب الذي سار عليه ابن خالويه ، أقرب إلى الترتيب التاريخي ، كما ذكرنا ، فإذا عزّ علينا الترتيب التاريخي ، فالأفضل أن نرتب الديوان على حسب موضوعاته ،

فتجمع قصائد كل باب متجاورة ، فذلك خليق بأن يبرز لنا خصائص الشاعر ،  
في كل فن من فنونه ، في سهولة ويسر . فإذا جمعنا بين الترتيب الموضوعي  
والتاريخي معاً ، فذلك هو المثل الأعلى للجمع والترتيب .

وكنت أؤثر أن لو أضاف الناشر إلى جهده الضخم ، شرح غريب الديوان  
في ذيل الصفحات ؛ حتى يكون بذلك قد خلى بين القارئ والشعر ، لا يحول  
بينهما تحريف في عبارة ، ولا غرابة في لفظ ، ولم يكن أبو فراس مغرماً بالغريب  
أو مستكثراً منه ، فكان من السهل على الناشر شرح هذا القليل ، حتى  
يصبح كتابه مستغنياً بنفسه عما سواه .

وقد تحرى الناشر أقرب الروايات إلى الصحة ، من بين الروايات المختلفة ،  
ولكنني أرى أنه قد اختار في أحيان قليلة رواية أراها مرجوحة ، كما آثر أن  
يروى هذا البيت :

وهل لقضاء الله في الخلق غالب وهل لقضاء الله في الخلق هارب  
( ص ٣٢ ) باللام ، وإنني أؤثر رواية الشطر الثاني بمن بدلها ، فيكون :  
« وهل من قضاء الله في الخلق هارب » ؛ إذ يقال : هرب من كذا .

وآثر أن يروى البيت في خطاب سيف الدولة :

دعوناك ، والهجران دونك دعوة أذاك بها يقظان فكرك ، لا البرد  
وأؤثر رواية العاقل : البحران بدل الهجران ، التي لا معنى لها هنا ، ولعله  
يقصد بالبحرين نهريْن ، يفصلان بينه وبينهم . وروى البيت :

يا طلعة الشمس لما صادفت حلالاً من السحاب على أرض من الزهر  
وأؤثر خللاً ، أي منفرجاً بين السحب ، لأن طلعة الشمس إذا لبست حلل  
السحب لا ترى ، ولا تفرح بها أرض من الزهر . وروى البيت :

أخو الغمرات في جدد وهزل أخو النفقات من سعة وضيق  
وأفضل : رواية في سعة وضيق ، أو في وجد وضيق . وروى البيت :

ولكن دهرًا دافعتني خطوبة كما دفع الدين الغريم الماثل  
وأفضل دافع الدين الغريم الماثل وروى البيت :  
خليلى شدالى على ناقتيكما إذا ما بدا شيب من العجز ناصل  
ولا معنى للعجز هنا ، وأختار رواية الفجر . وروى البيت :

وإن مقيا ، منهج العجز ، خائب وإن مريفا ، خائب الجهد ، نائل  
وأفضل على ذلك رواية : وإن مقيا منجح العجز خائب ؛ فإن أبا فراس  
يوازن بين رجلين : أحدهما مقيم لا يطلب ، عاجز عن الجهاد ، غير أنه قد  
نجح ؛ وثانيها طالب مجد ، ولكن جهده قد خاب ، فأبو فراس لا يعد نجاح  
الأول نجاحا ، ولا فشل الثانى خيبة وإخفاقا . ورجح رواية البيت :

لقد ظننتك بين الجحفلين ترى أن السلامة من وقع القنا تصم  
والأفضل رواية : لقد رأيتك . وآثر رواية البيت :  
ومن لقي الذى لاقيت هانت عليه موارد الموت الزوام  
وآثر الرواية الأخرى : ومن أبقي الذى أبقيت هانت ... لأنه فسر ما أبقاه  
فى البيت الثانى ، إذ يقول :

ثناء طيب ، لا خلف فيه وآثار كآثار الغمام  
وبدون ذلك ، يبدو البيت الثانى ، منقطعاً عن صاحبه . وروى البيت :  
فيحفظ قلبى ساعة ، ثم ينثنى وأفسو عليه ، تارة ، ويلين  
والأفضل عندى رواية : « وألين » حتى يكون المتحدث عنه واحداً فى الشطر  
الثانى ، كما هو واحد فى الشطر الأول .

هذا ، ويخيل إلى أن أبياتاً ثلاثة ، قد تسلت إلى القصيدة رقم ٣٣٢ ص ٤٠٦ ،  
من غير أن تكون هذه الأبيات فيها ، أو أن موضعها فى القصيدة ، ليس هو  
الموضع الصحيح ، وذلك حيث يقول :

ما لى جزعت من الخطوب ، وإنما أخذ المهيم بعض ما أعطانى  
( م - ١٠ )

ولقد سررت ، كما غممت عشائري زمنا ، وهنأني الذي عزاني  
وأسرت في مجرى خيولي ، غازيا وحبت ، فيما أشعلت نيران  
فأنت تراه هنا يتحدث عن حاضره المؤلم ، متسليا بماضيه ، ولكنه ينتقل  
من ذلك إلى مدح سيف الدولة ، فيقول :

يرى بنا شطر البلاد ، مشيع صدق الكريهة فائض الإحسان  
بلد لعمرك ، لم أزل زواره مع سيد ، قرم ، أغر ، هجان  
إنا لنلقى الخطب فيك ، وغيره بموفق ، عند الخطوب ، معان  
ثم يعود مرة أخرى إلى الحديث عن حاله اليوم والأمس ، فيقول :  
أصبحت ممتنع الحراك ، وربما أصبحت ممتنعاً على الأقران  
مما أرجح معه أن هذه الأبيات ، قد دست بين الغرض الواحد دسا ، فضلا  
عن حديثه عن بلد ، غير مذكور في الفصيحة ، وعن غموض المعنى ، وضعف  
الأسلوب في قوله : إنا لنلقى فيك الخطب وغيره .

وفي الديوان عنوان خاطي هو : وقال في ابنته زوجة أبي العشائر (ص ٣٧٥) ،  
فأبو العشائر لم يتزوج ابنة أبي فراس ، ولكن أخته ، ولعل الصواب أن هذه  
القطعة ، قالها أبو فراس في زوجته هو ، ابنة أبي العشائر ، والشعر نفسه يدل على  
ذلك ، إذ يقول :

وأديبة ، اخترتها ، عربية تعزى إلى الجد الكريم ، وتنتمى  
لو لم يكن لي فيك إلا أنى بك قد غنيت عن ارتكاب المحرم  
وهناك — وإن كان ذلك نادرا — بعض جل غير مفهومة كقوله :  
حلت على ورود الموت نفسى وقلت لعصبتى : موتوا كراما  
ولم أبذل ، لخوفهم ، مجنا ولم ألبس ، حذار الموت ، لاما  
فلا معنى لكلمة ، أبذل هنا كما أشعر بقاء في كلمة ، صباح ، من رواية  
هذا البيت :

يثول به الصباح ، إلى صباح ويسلمه الظلام ، إلى ظلام  
فالشاعر في الشطر الثاني ، يريد أن يقول : إن ظلام الليل ، يسلمه إلى  
ظلام ، في نظرته إلى الحياة ، وإلى متاعب قلبية ، يظلم بها عيشه ، ومن هنا  
لا أجد لكلمة صباح موضعاً .

وعنى الناشر بأن يستدرك ما أخطأت فيه المطبعة من الشكل ، ولكن  
لم يزل هناك بعض ، لم يشر إليه ، فمن ذلك زمت أبا عمره ( ص ١٨١ ) بفتح  
الزاي ، والصواب ضمها ، وينسون بضم السين ( ص ٢٧١ ) والصواب فتحها ،  
وتعال ( ص ١٨٤ ) بضم التاء بدل فتحها ، وولوا ( ص ٢٨٥ ) بضم اللام  
بدل فتحها ، وتوضع مكان توضع ( ص ٢٧٩ ) ، ولكن الكلام بدل  
ولكن الكلام ( ص ٣٧١ ) .

هذا ، وكنت أؤثر للناشر ، أن ينقل إلى العربية ، آراء المستشرقين في  
الشاعر ، كما نقل إلى الفرنسية ، موجز ما كتبه العرب عنه ، حتى يقف من لا علم  
عنده بالفرنسية ، على آراء المستشرقين في الشاعر العربي .

وبعد فهذه ملحوظات ، لا تقلل شيئاً من قيمة جهد الناشر الكريم ، الذي  
أحيا بجده ديوان أبي فراس . وقد ذكرناها ، أمانة للعلم ، وسعياً للوصول  
إلى الكمال .

## بينه وبين المتنبي

( كان أبو فراس ، في السابعة عشرة من عمره ، عندما اتصل المتنبي بسيف الدولة ، سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة هجرية ، بينما كان المتنبي يقطع عامه الرابع والثلاثين ، وظل الشاعران زهاء تسع سنوات ، يجمعهما بلاط الأمير ، ولكنك لا تجد في ديوان أحد الشعارين ، ذكر صاحبه ، مما يوحي بأن الصلة بينهما ، لم تكن صلة حب وود ، وإنما كانت صلة خصومة ونقار . ولعلنا لا نحتاج إلى عناء ، في تلخيص الأسباب التي باعدت بين الشعارين ، فأبو فراس أمير من بيت الملك ، يعتز بنسبه ، وحسبه ، وصلته بسيف الدولة ، وموهبته الشعرية ، يملأ نفسه الشعور بهذا كله ، ولا سيما في مثل هذه السن التي يتجسم فيها الشعور بالذات ، والاعتزاز بالمواهب ، فلم يكن يرضيه ما يشاهده في المتنبي من عجرفة وكبرياء ، كان يشكو بعض مرارتها سيف الدولة نفسه ، وكان من آثار غطرسة المتنبي ، أن أغفل أبا فراس ، فلم يمدحه ، ولعل لصغر سن الأمير دخلا في هذا الإغفال ، فنشأ هذا الجفاء ، الذي نما بمرور الأيام .

ويرى المستشرق بلاشير ، في كتابه عن المتنبي ( ص ١٤٢ ) أن الكراهية بين أبي فراس والمتنبي ، تعود إلى نفور طبيعي ، هذا النفور الذي يكون بين أمير عظيم ، وعامى دنىء النسب ، بين رجل ذى قلب ، وآخر يغالى ويعبث ، بين شاعر حساس ، ورجل ذى منطق وبرهان . )

ولقد تجمع حول أبي فراس ، طائفة من شائئ المتنبي وحاسديه ، كأبي العشائر ، زوج أخت أبي فراس ، الذي لم يغفر للمتنبي إغفاله إياه ، بعد أن كان سبب تعرفه بسيف الدولة ، وبعض رجال البلاط ، من أصدقاء أبي فراس كالتقاضي أبي الحصين ، والأميرين : أبي محمد ، وأبي حامد ابني ورقاء ، والعالم

النحوى ابن خالويه ، الذى لم ينس للمتنى احتقاره لغير العرب ، ولا مهاجمته إياه فى بعض ما كان يمتز به من قواعد ونحوه ، وكان يخشى أن يصاب فى رزقه ، الذى كان يدره عليه ، قيامه بتعليم الأمراء .

وكان أبو فراس فى أول الأمر محتاط فى خصومته ، ويقف عند حد المهاجمات اليسيرة ، فكان يسخر من المتنبي ، أنه لا يحيد ركوب الخيل ، ولا استعمال السلاح<sup>(١)</sup> . وكثيراً ما كان يذكره ، هو ومن معه ، بحادثة بادية السماوة ، ويسألونه عن سبب تقلبيه بالمتنبي ، ويبعثون فى ديوانه عن شعر يحوى قضايا فلسفية فيها بدع ، وما كان يعجزهم العثور على هذه الأبيات .

ويظهر أن أبا فراس وجماعته لم تهدد الشاعر فى رزقه ، تهديداً أثر فى نفسه ، وأثاره إلا بعد نحو ثلاث سنوات من مقدمه ، فقد رأينا أبا الطيب فى القصيدة التى أنشأها فى رمضان ، سنة أربعين وثلاثمائة ، وقد أراد سيف الدولة قصف خرشنة ، فعاقه الثلج عن ذلك — يقول لأول مرة مشيراً إلى خصوصه :

خليلي ، إني لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومنى القصائد ؟  
أحبك يا شمس الزمان ، وبدره وإن لا منى فيك السها ، والفراقد  
وذاك ؛ لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد  
وربما كان الشاعر يفكر فى نفسه ، أكثر من تفكيره فى سيف الدولة وهو ينشد قصيدته التى عزاه فيها عن غلامه يملك ، فى رمضان أيضاً ، سنة أربعين وثلاثمائة :

فدتك نفوس الحاسدين ، فإنها معذبة ، فى حضرة ، ومغيب  
وفى تعب من يحسد الشمس نورها ويجهد أن يأتى لها بضرب  
وإل المتنبي حاول فى أول الأمر ، ألا يثير ضده ، خصومة أبي فراس ، لعل به شدة قربيه من قلب الأمير سيف الدولة ، فأبو فراس فضلاً عن أنه

(١) خزنة الأدب ج ١ ص ٣٩٩ ، والصبح المنى ج ١ ص ٥٤ .

ابن عمه ، كانت أخته زوج سيف الدولة ووالدة ابنه : أبي المكارم ، وأبي المعالي ، « وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس ، ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ، ويصطنعه لنفسه <sup>(١)</sup> » ، ولا يأمن المتنبي نتيجة هذا العداء . ولعله كان يتملق أبا فراس ، فيشهد له بالبراعة الشعرية ، يقول الثعالبي : « وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ، ويتحامى جانبه ، فلا ينبرى لمباراته ، ولا يجترئ على مجاراته ، وإنما لم يمدحه ، ومدح من دونه من آل حمدان ؛ تهيباً له وإجلالاً ، لا إغفالا وإخلالاً <sup>(٢)</sup> » .

أما أن المتنبي كان يشهد له بالتقدم والتبريز ، فقد يكون ذلك على سبيل كف الأذى عن نفسه ، وربما كان المتنبي في سريره ، لا يعترف له بتقدم ولا تبريز ، كما شاهدنا ذلك في أبياته السابقة ، التي لا يجد فيها شاعراً إلا نفسه ، وأما أنه كان يتحامى جانبه ، فذلك صحيح لما ذكرناه ، وأما أنه لم يمدحه ، فلهذا النفور الذي كان بين الشعارين ، ولصغر سن أبي فراس ، وعجرفة المتنبي الذي لم يمدح بعد أن اتصل برأس الحمدانيين — أميراً غيره ؛ ذهاباً بنفسه — كما يقال — عن مدح غير الملوك . أما ما ادعاه الثعالبي ، من أن سبب ذلك كان الهيبة والإجلال ، فغير معقول ، لأن الهيبة والإجلال ، لم تحولا بينه وبين مدح سيف الدولة .

كان المتنبي يرجو ألا يثير خصومة أبي فراس ، ولكن هذا الأمير الشاب ، لم يكف عن خصومته ، التي بدأت تجعل المتنبي يتبرم بالحياة إلى جانب سيف الدولة . ويظهر هذا التبرم في شعره ، وخصومه يتربصون الدوائر به ، فما هو إلا أن أبطأ الشاعر في إنشاد المديح لسيف الدولة ، وكان هذا شديد الرغبة في سماع مدائمه ، كما يدل على ذلك تاريخه مع شاعره <sup>(٣)</sup> — حتى انتهز هذه الفرصة

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) راجع كتاب المتنبي بعد ألف عام للدكتور عبد الوهاب عزام بك ص ١٢٠ .

أبو فراس ، فقال لا بن عمه : « إن هذا المثلث كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ، ثلاثة آلاف دينار ، على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار ، على عشرين شاعراً ، يأتون بما هو خير من شعره » ، وكان لهذا الحديث ، أثره العميق في نفس سيف الدولة ، فأعرض عن الشاعر يوماً في محضر من الناس ، فمضى المتنبي يريد أن يستدرك أمره ، فأرسل إلى الأمير قصيدة ، يقول فيها :

أرى ذلك القرب صار ازورارا    وصار طويل السلام اختصارا  
ومنها : كفرت مكارمك الباهرات ، إن كان ذلك مني اختصارا  
ولكن حمى الشعر إلا القليل ، هم ، حمى النوم ، إلا غرارا  
ولكن ذلك ، لم يعد الأمير إلى سابق رضاه ، فأنشأ الشاعر قصيدة ، يتحدث فيها عن آلامه ، ويفنذره بالفراق ، ويهاجم خصومه ، ولقد حفظ تاريخ الأدب لهذه القصيدة قصة ، حكاه ابن الدهان المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ، وهي وإن كان الشك يحيط بتفاصيلها ، تعطي ظلاً ، لما دار في مجلس إنشادها ؛ ففي آخر رجب أو أول شعبان سنة ٣٤١ هـ ، نجد المتنبي في مجلس سيف الدولة ، وقد أحاط بالأمر ابن عمه ، ومنافسو الشاعر ، وفي هذا الجو ، يبدأ المتنبي في إنشاد قصيدته :

واحر قلباه ، بمن قلبه شيم    ومن بجسمي وحالي عنده سقم  
مالي أكنم حباً قد برى جسدي    وتدعى حب سيف الدولة الأم  
فيتألم أبو فراس لهذه الإشارة ، ولكنه يكظم غيظه ، بينما الشاعر يستمر في إنشاده :

إن كان يجمعنا حب لغته    فليت أنا بقدر الحب نقسم  
قد زرت ، وسيوف الهند مغمدة    وقد نظرت إليه ، والسيوف دم  
يشير بذلك إلى الهزيمة ، التي منى بها جيش سيف الدولة أمام خرشنة ، وكان بعض هؤلاء الذين انهزموا ، حاضرا ذلك المجلس ، فبدأ عليهم الغضب

عندئذ ، حتى إذا وصل إلى قوله :

يا أعدل الناس إلا في معاملي فيك الخصام ، وأنت الخصم ، والحكم  
لم يستطع أبو فراس أن يكبح جماح نفسه ، فقال له : مسخت قول دعبل ،  
وادعيته ، وهو :

ولست أرجو انتصافاً منك ، ما زرفت عيني دموعاً ، وأنت الخصم والحكم  
وهنا لم يرد عليه المتنبي ، بل زاده غيظاً ، إذ قال :

أعيذها نظرات ، منك ، صادقة أن تحسب الشحم ، فيمن شحمه ورم  
قيل : فعلم أبو فراس أنه يعنيه ، فقال : « ومن أنت يا دعي كندة ، حتى  
تأخذ أعراض أهل الأمير في مجلسه ؟ ! » ولكن المتنبي لا يجيبه . ويستمر ،  
حتى يصل إلى قوله :

سيعلم الجمع ، ممن ضم مجلسنا بأننى خبير من تسعى به قدم  
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلمائى من به صمم  
فقال له أبو فراس : سرقت هذا من عمرو بن عمرو بن الورد ، إذ قال :  
أوضحت من طرق الآداب ما اشتكت دهرى ، وأظهرت إعراباً ، وإبداعاً  
حتى فتحت بإعجاز ، خصصت به للعمى ، والصمم ، أبصاراً ، وأسماعاً  
ولما وصل المتنبي إلى قوله :

والخيل ، والليل ، والبيداء ، تعرفنى والحرب ، والضرب ، والقرطاس ، والقلم  
قال له أبو فراس : « وما أبقيت الأمير ، إذا وصفت نفسك بالشجاعة ،  
والفصاحة ، والرياسة ، والسماحة ؟ ! تمدح نفسك بما سرقت من كلام غيرك ،  
وتأخذ جوائز الأمير ؟ ! أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النخعى ؟

أعاذتى ، كم مهمه قد قطعت أليف وحوش ، ساكنا غير هائب  
أنا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى وجرد المذاكى ، والقنا ، والقواضب  
وهكذا استمر أبو فراس يتهمة بالسرقة ، والمتنبي منصرف عنه لا يجيبه ،

حتى انتهى الشاعر من إنشاده ، ولم ينجح في استرضاء الأمير ، غالبا ؛ فقد كانت القصيدة في جملتها ، عنيفة منذرة ، أكثر منها لينة ، مسترضية .

وظل المتنبي بعد هذه المعركة أربع سنين ، وهو في نضال مع خصومه ، وقد حفظ لنا شعره ، صورة من هذا النضال ، حتى انتهى الأمر بانتصارهم عليه ، على يد ابن خالويه ، ففي مناقشة بينهما ، في مجلس الأمير ، أخرج ابن خالويه مفتاحاً من كفه ، شج به الشاعر ، فأدماه ، ولم يقل الأمير شيئا ، وخرج المتنبي كبير النفس ، حزينا ، ورحل عن بلاط سيف الدولة .

وكان أبو فراس من بين الأسباب التي حالت بين المتنبي وعودته إلى حلب ، بعد مغادرته مصر ، فقد كان يخشى أن يموت سيف الدولة ، يأخذ السلطة ابن عمه أبو فراس ، فلا يطيب له المقام في حلب .

وإذا كان المتنبي قد أشار — إذا صح ما روى — إلى أبي فراس في شعره ، وهاجمه ، فإن أبا فراس لم يشر إشارة ما ، إلى المتنبي في شعره ، ولعل سبب ذلك يعود إلى أن المتنبي كان مضطراً إلى مهاجمة خصومه ، ليدافع عن عيشه ومصدر رزقه ، الذي كان مهدداً بهؤلاء الخصوم ، أما موقف أبي فراس منه ، فموقف الكائده ، المغيظ منه ، وعله يراه في نظره أهون من أن يشغل شعر أمير من بيت الملك .

\* \* \*

كان موقف الشاعرين من سيف الدولة موقف الحب والإجلال ، وقد أجادا في الإفصاح عما يحملانه لهذا الأمير الكبير .

أما موقفهما من معارك سيف الدولة ووقائمه ، فمختلف ، ذلك أن المتنبي كان الشاعر الرسمي للأمير ، فكان يطلب منه أن يشيد بذكر هذه الوقائع ، في قصائد طويلة مليئة بالتصوير والتهويل . أما أبو فراس فلم يكن يطلب منه ذلك ، فلم يكن أبو فراس يسجل في قصائد خاصة ، معارك سيف الدولة ، بأن ينشئ

القصيدة ، عقب المعركة الكبيرة يتحدث عنها ، كما كان يفعل المتنبي ، بل يظهر لى أن هذه المعارك لم تظهر بشعر من أبى فراس قبل سنة ٣٤٣ هـ ، عندما أنشأ قصيدته الرائية المطولة ، التى تحدث فيها عن مفاخر أسرته ، فخص سيف الدولة بشطر كبير منها ، سجل فيه معارك ابن عمه فى العرب والروم ، غير ملتزم فى الحوادث ترتيبها كما وقعت . وفى هذا الجزء من القصيدة تحدث أبو فراس عن حوادث لم يتحدث عنها المتنبي ، وعن أخرى أنشد فيها هذا قصائد مطولة .

فما تحدثنا عنه معاً ، تلك الغزوة ، التى خرج فيها جماعة من القرامطة ، فى بادية السماوة ، فأغاروا على حصص ، وأخذوا عامل سيف الدولة عليها ، وهو ابن عمه أبو وائل : تغلب بن داود ، فمضى إليهم سيف الدولة ، وأوقع بهم ، واستنقذ منهم ابن عمه ، وكان ذلك عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة ، وعمر أبى فراس زهاء سبعة عشر عاماً ، فلم ينشئ يومئذ أبو فراس شعراً فى ذلك ، أما المتنبي فقد أنشأ قصيدة طويلة لامية<sup>(١)</sup> بدأها بقوله :

إلام طماء—ية العاذل ولا رأى فى الحب للعاقل ؟ !

وقد تصرف فيها فى فنون القول : فبدأها بغزل رقيق ، ثم انتقل إلى الحديث عن أسر أبى وائل ؛ وكيف مضى سيف الدولة إليه ، ينقذه فى جيش كفيل بالنصر ، ويمضى الشاعر فى تصوير لقاء الجيش ، مستهزئاً بالقرمطى حيناً ، ومشيداً بشجاعة سيف الدولة حيناً آخر ، وخاتماً قصيدته بحديث عما فى الحياة من خيانة وغدر .

أما أبو فراس ، فإنه لم يدع لهذا الحادث من قصيدته الطويلة سوى بيتين ، هما :

وأنقذ من مس الحديد وثقله أبا وائل ، والدهر أجده ، صاغر  
وآب ، ورأس القرمطى أمامه له جسد ، من أكعب الرمح ، ضامر

فهو مع إيجازه ، لم ينس تصوير هذا المنظر ، الذى ربما كان قد رآه ، عند عودة سيف الدولة إلى حلب ، يقدمه رأس القرمطى على رمح .

---

(١) راجع تحليل القصيدة فى صفحة (٤٠٣) من كتاب مع المتنبي للدكتور طه حسين باشا .

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، مضى سيف الدولة غازيا في بلاد الروم ، وكان يصحبه في تلك الغزاة الشاعران ، ونجح سيف الدولة ، وانتصر انتصارا مبينا في أول الأمر ، فإنه اقتحم الحدود ، وأوغل في بلاد الروم ، وظفر بفنائم كثيرة ، ولكن هذا النصر استحال إلى هزيمة ، فإن العدو قد أخذ الطرق على الغزاة وهم قافلون ، ولم ينج سيف الدولة إلا بعد جهد جهيد . وفي السنة التالية أراد أن يثار المسلمين ، مما أصابهم في عامهم الفارط ، فتبها للزحف ، ولكن المسلمين هابوا جيش العدو ، وقد بلغهم ضخامته ، وكثرة عدده ، غير أن سيف الدولة مضى بجيشه ، حتى اكتسح العدو ، وكان يريد أن يصل إلى خرشنة ، فعاقه عن ذلك تساقط الثلج ، فلم يستطع سيف الدولة أن يتقدم ، وعاد بجيشه ، مظفراً لم يضايقه الروم ، ولم يأخذوا عليه طريقه .

صور المتنبي هذه الحوادث . تصويراً قويا ، في قصائد عدة رائعة ، فعند ما عرض سيف الدولة الجيش قبل هجومه سنة ٣٣٩هـ ، أنشأ قصيدة جيمية<sup>(١)</sup> أولها:

لهذا اليوم بعد غد ، أريج ونار في العدو ، لها أجيح  
وفيها يقول له :

فلا زالت عداتك حيث كانت فرانس ، أيها الأسد المهيج

...

أبا لغمرات ، توعدنا النصارى ونحن نجومها ، وهى البروج  
وفينا السيف ، حملته صدوق إذا لاقى ، وغارته لجوج  
حتى إذا عاد من تلك الغزاة ، غير بالغ من التوفيق ما كان يبغيه ، أنشد  
قصيدة من أقوى قصائده ، بدأها بقوله :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا ، أوحذوا شجعوا

---

(١) راجع تحليل هذه القصيدة وما بعدها بس ٣٦ ، وما يليها من كتاب مع المتنبي للدكتور طه حسين باشا .

ووصف فيها ما كان في أول الحرب ، من نصر مبین ، ثم هزيمة منكرة ،  
تصويراً بارعاً صادقاً ، فإذا كان العام القادم فما هو ذا المتنبي ، ينشد قصيدته ،  
يبحث فيها رجال الجيش ، على الإقدام غير هائبين عدة العدو ، وعدده ، ويقول :  
وقد علم الروم الشقيون أننا إذا ما تركنا أرضهم خلفنا عدنا  
وأنا إذا ما الموت صرح في الوغى لبسنا إلى حاجتنا الضرب والطعن  
فلما انتصر الجيش ، سجل انتصاره ، في قصيدة دالية ، يقول فيها :  
وأشقى بلاد الله ، ما الروم أهلها بهذا ، وما فيها لمجدك جاحد  
شنت بها الغارات ، حتى تركتها وجفن الذي خلف الفرنجة ساهد  
مخضبة ، والقوم صرعى ، كأنها وإن لم يكونوا ساجدين ، مساجد  
وهكذا ، كان شعر المتنبي ، الصوت المدوي في هذه الأحداث ، واللسان  
المعبر عنها ، والمصور لها ، بينما لم نسمع لأبي فراس صوتاً فيها ، حتى إذا أنشأ  
رائيته اكتفى في وصف هذه الوقائع ببضعة أبيات ، هي :

وأوردها بطن اللقان ، وظهره يطآن به القتلى ، خفاف حوادر  
أخذن بأنفاس الدمستق ، وابنه وعبرن بالتيجان من هو عابر  
وجبن بلاد الروم ، ستين ليلة تغاور ملك الروم فيمن تغاور  
تخر لنا تلك المعازل سجدا وترى لنا بالأهل ، تلك المطاسر  
وصمت أبو فراس كذلك سنة اثنتين وأربعين وثلاثاً ، فلم ينظم شعرا  
في تلك الغزوة الناجحة ، التي شنها سيف الدولة في بلاد الروم ، وخرج منها هازما  
الدمستق ، أسرا ابنه قسطنطين ، مع أن أبا فراس كان يصحب الأمير في تلك  
الغزوة ، وسجلها بعدئذ في رائيته في شعر قوى حقا ، إذ يقول :

ولما وردنا « الدرب » والروم فوقه وقدر قسطنطين أن ليس صادر  
ضربنا بها عرض « الفرات » كأنما تسير بنا تحت السروج جزائر

وأبن بقسطنطين ، وهو مكبل      تحف بطاريق به ، ووزاور  
وولى على الرسم الدستق هاربا      وفى وجهه عذر ، من السيف ، عاذر  
فدى نفسه ، بأبن عليه ، كنفسه      وللشدة الصماء ، تقنى الذخائر  
وقد يقطع العضو النفيس لغيره      وتدفع بالأمر الكبير ، الكبائر  
ولكن هذا الشعر القوى ، لا يبلغ من الروعة تلك القصيدة التى أنشأها  
المتنبى فى تلك الغزاة ، التى عدها الدكتور طه حسين <sup>(١)</sup> أروع ما قاله لسيف  
الدولة من الشعر ، ومطلع القصيدة :

ليالى بعد الطاعنين شكول      طوال ، وليلى العاشقين طويل  
ولم تظفر معركة الحدث التى نشبت سنة ٣٤٣ هـ ، ثم جددت سنة ٣٤٤ هـ من  
أبى فراس ، بأكثر من أربعة أبيات فى رائيته ، بينما أنشأ فيها المتنبى قصيدتين ،  
لا يزال مطلع أولاهما ، يجرى على كل لسان ، إذ يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم      وتأتى على قدر الكرام المكارم  
وليست الأبيات الأربعة بشئ ، بجانب قصيدة المتنبى .

ووصف الشاعران كذلك ، وصول رسول ملك الروم ، يطلب الهدنة من  
سيف الدولة ، وكان وصول الرسول يملاً المتنبى زهواً ، ويشير فيه أروع  
الشعر وأقواه ، وقد وصف فى ثلاث قصائد ، ثلاث مرات قدم فيها الرسول ،  
يطلب الهدنة ، وكانت القصائد فى قوتها ، متناسبة مع الدافع القوى على إنشائها ؛  
ففى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، نظم قصيدة يقول فيها ، ممتلئاً بهذا الموقف  
فخاراً :

لقد جدت ، حتى جدت فى كل ملة      وحتى أتاك الحد ، من كل منطق  
رأى ملك الروم ارتياحك للندى      ققام مقام المجتدى ، المتلقى  
وخلى الرماح السمهرية ، صاغراً      لأدرب منه بالطعان وأحذف

(١) مع المتنبى ص ٤٤٣ .

وكاتب من أرض ، بعيد مرامها قريب على خيل حواليك ، سبق  
وفي سنة ثلاث وأربعين ، أنشأ قصيدتين أيضاً ، في مقدم رسول ملك  
الروم ، قال في إحداها :

إذا عاينتك الرسل ، هانت نفوسها عليها ، وما جاءت به ، والمراسل  
رجا الروم من ترجى النوافل كلها لديه ، ولا ترجى لديه الطوائل  
فإن كان خوف القتل والأسر ساقهم فقد فعلوا ما القتل والأسر فاعل  
وفي مفتتح سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، ورد فرسان الثغور ، ومعهم  
رسول ملك الروم ، يطلب الهدنة أيضاً ، فأنشد المتنبي بحضرتهم قصيدة طويلة ،  
من قصائده القوية ، وفيها يقول :

تفر حلاوات النفوس قلوبها فتختار بعض العيش ، وهو حمام  
وشر الحمامين الزوامين ، عيشة يذل الذي يخترارها ، ويضام  
فلو كان صلحاً لم يكن بشفاعه ولكنه ذل لهم ؛ وغرام  
ومن فرسان الثغور عليهم بتبليغهم مالا يكاد يرام  
أما أبو فراس فلم يحدثنا سوى مرة واحدة عن مقدم الرسول ، وقد أنشأ في  
ذلك مقطوعة ، وصف فيها الجند الذين أمر سيف الدولة أن يركبوا بسلاحهم ،  
ومعهم راياتهم ، فامتلاً بهم جبل « جوشن » وما حوله ، فقال :

علونا « جوشنا » بأشد منه وأثبت ، عند مشجر الزماح  
بجيش ، جاش بالفرسان ، حتى ظننت البر بحرا ، من سلاح  
ومنها يمدح سيف الدولة :

وأروع ، جيشه ليل بهم وغرته ، عمود من صباح  
صفوح ، عند قدرته ، كريم قليل الصفح ما بين الصفاح  
فكان ثباته للقلب قلباً وهيبته جناحاً للجناح  
أما ما يثيره مثل هذا القدوم : من انفعالات قوية ، فلم يتعرض له أبو فراس .

ولم يقارب أبو فراس صاحبه كذلك ، عندما تحدثا عن معركة بنى كلاب ،  
التي دارت سنة ٣٤٢ هـ ، فأوقع سيف الدولة بهم ، وملك الحریم فأبقى عليه ،  
وكان الشاعران معه ، في تلك المعركة ، فقال أبو الطيب بعد رجوعه من تلك  
الغزوة قصيدة ، صور فيها حزم سيف الدولة ، وجده في طلبهم بجيش لجب ، لم  
يلبث أن فر أمامه العدو ، وتشئت أخلاقه في خوف وذعر ، وكيف أمنت النساء  
في كنفه ، أن يتعرضن للأسر والمهانة ، ولم ينس المتنبي أن يعطف قلب الأمير  
على هؤلاء العصاة ، الذين هم في الواقع مادة جيشه ، في حروبه مع الروم . بدأ  
المتنبي قصيدته بقوله :

بغيرك راعيا ، عبث الذئاب      وبغيرك صارما ، ثلم الضراب  
وفيهما يصف طلبه للعدو :

طلبهم على الأمواه ، حتى      تخوف أن تفتشه السحاب  
فبت لياليا ، لا نوم فيها      تحب بك المسومة العراب  
يهز الجيش حولك جانيبه      كما نفضت جناحيها العقاب  
ومنها يصف نساء عدوه :

فعدن ، كما أخذن ، مكرمات      عليهن القلائد ، والملااب  
يثبنك بالذى أوليت ، شكرا      وأين من الذى تولى ، الثواب  
وليس مصيرهن إليك شينا      ولا في صونهن لديك ، عاب  
وكرس معظم القصيدة لاستعطاف الأمير ، استعطافا رقيقا ، منه قوله :  
وكيف يتم بأسك في أناس      تصيبهم ؛ فيؤملك المصاب  
ترفق أيها المولى ، عليهم      فإن الرفق بالجاني ، عتاب  
وإنهم عبيدك حيث كانوا      إذا تدعسوا لحادثة أجابوا  
أما أبو فراس فقد خصص لتلك المعركة من قصيدته الرائية سبعة أبيات  
فحسب ، كان معظمها في وصف النساء آمنت مصونات ، إذ يقول :

وقد يكبر الخطب اليسير، وتحتى أكابر قوم ما جناه الأصاغر  
كما أهلك «كلبا» غواة جناتها وعم «كلابا» ما جنته «الجعافر»  
شرينا، وبعنا بالسيوف نفوسهم ونحن أناس بالسيوف نتاجر  
وصنا نساء، نحن أولى بصونها رجعن ولم تكشفهن ستائر.. الخ  
ومن ذلك يبدو لنا أن ما تعرض له الشاعران من وقائع سيف الدولة إلى  
ذلك الحين، مختلف في اتجاهه وطريقة تأليفه، فبينما المتنبي ينظم القصيدة عقب  
الموقعة، فيشفي نفسه ونفس أميره من الحديث عنها، إذا بنا نجد أبا فراس صامتا.  
ولا ريب أن شيئا من ذلك يعود إلى صغر سن أبي فراس، فقد كان في تلك  
المعارك التي تحدثنا عنها، بين السابعة عشرة والرابعة والعشرين، بينما كان المتنبي  
يقطع العقد الرابع من عمره ويبدأ العقد الخامس، ناضج الشعر والعقل والثقافة،  
ولست أشك في أن عدااء أبي فراس له، كان يعود قسم كبير منه إلى تفوق المتنبي  
تفوقا لا يقارب، في وصف هذه المعارك، مما جعله أثيرا لدى سيف الدولة.  
لم يقف أبو فراس في تسجيل وقائع سيف الدولة، عند حد القصيدة الرائية  
التي تم إنشاؤها في أغلب الظن سنة ٣٤٤ هـ؛ فقد أنشأ قبل هذه القصيدة قصيدة  
بائية، سجل فيها حوادث ثورة تكاد تكون عامة ضد سيف الدولة. ولأنه  
أنشأ لهذه الحوادث المهمة قصيدة خاصة، لم يتحدث عنها في رائيته المطولة؛ فقد  
حدث في صفر، سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، أن تحالف بنو عامر بن صعصعة  
وجيران لهم كثير، على مخالفة سيف الدولة، واجتمعت إليهم طيء وكلب، وكل  
من ينزل بالشام من كعب وكلاب، وسروج سليمة، وبساطى الفرات، ونواحي الرقة،  
واتفقوا على مقاتلته ومناجزته، وأوقعوا بعامله بقنسرين، وهو الصباح الحارقي،  
فنهض سيف الدولة ومعه ابن عمه أبو فراس حتى أوقع بهم، وقتل وجوههم  
وسراتهم، وقدم أبا فراس في قطعة من الجيش، فلم يزل يتبعهم يقتل ويأسر،  
حتى ألحقهم بالغوير، واتبعهم سيف الدولة، حتى لحقهم بدمر، فقتلهم وأهلكهم،

عطشا وقتلا « بالسماوة » وأرضها ، ثم سار إلى « بنى نمير » وهي بالجزيرة ، فوجدهم قد بذلوا الطاعة ، ونزلوا على حكمه ، فصصح عنهم ، وأحلهم بالجزيرة .  
أثار نصر سيف الدولة على هذه الثورة العنيفة خواطر الشعراء ، فأنشأ أبو فراس قصيدة مطولة ، كما نظم ابن ورقاء الشيباني قصيدة ، يهنئ فيها الأمير بهذه الغزاة ، ويفاخر مضر بأيام بكر وتغلب ، في الجاهلية والإسلام ، وأولها :

أرسما « بسابروج » أبصرت ، عافيا      فأذكرك العهد الذي كنت ناسيا  
أما أبو الطيب فلم يشهد حوادث هذه المعركة ، ولكن سيف الدولة وصفها له ، فأنشأ فيها قصيدتين ، إحداها قافية ، والثانية رائية .  
بدأ أبو فراس قصيدته بغزل بالك حزين ، وأى منظر يثير البكاء أكثر من رؤية القتلى ، مجندين هنا وهناك ، قال :

أبت عبراته إلا انكبابا      ونار ضلوعه إلا التهابا  
ومن حق الطلول على ألا      أغب من الدموع لها سحابا  
وما قصرت في تسأل ربع      ولكني سألت ، فما أجابا  
وهذا المنظر الحزين قد أثار فيه خواطر حزينة ، كآلمه لرؤية الشيب يملأ فؤديه ، وهو في ريعان الشباب :

رأيت الشيب لاح ، فقلت : أهلا      وودعت الغواية والشبابا  
وما إن ثبت من كبر ، ولكن      رأيت من الأحبة ما أشابا  
بشن من المصوم إلى ركبا      وصيرن الصدود لها ركابا  
وبعد هذا الغزل الباكي الذي أثارته هذه المناظر الحزنة ، وربما اندفع إليه بطريق غير شعورى — أثار فيه هذا النصر المؤزر الذى شارك فى نياله ، كل عوامل الزهو والفخار ، وأعجبه خضوع القبائل بعد هزيمتها ، وتفرد أسرته فيها بالسلطان ، فقال :

ألم ترنا أعز الناس جارا      وأمنعهم ، وأمرعهم جنابا  
( م - ١١ )

تفضلنا الأنام ، ولا نحاشي ونوصف بالجميل ، ولا نحابي  
وأجاد أبو فراس كل الإجابة ، عندما حدثنا عن هبوبهم مع سيف الدولة  
مطمعين ، لا يلوون على شيء ، قد ظفروا بفضل تربية سيف الدولة لهم ، وتهذيبه  
إياهم . وأبو فراس في ذلك مثال الجندي المخلص ، الذي يتغاني في حب قائده ،  
حتى يفنى فيه ، واستمع إليه يقول :

ولما ثار سيف الدين ، ثرنا كما هيجت آساداً غضاباً  
أسننته ، إذا لاقى طمعانا صوارمه ، إذا لاقى ضراباً  
دعانا ، والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا  
صنائع فاق صانعها ، ففاقت وغرس طاب غارسه ، فطابا  
وكنا كالسهم ، إذا أصابت مراميها ، فراميتها أصابا  
ومضى أبو فراس — وقد كان من أبطال المعركة — يتبع الجيش في سيره  
أنى مشى ، وهو يمشى مجدداً يختزل الطريق ، يسرى الليل ، كي يصل إلى عدوه  
في سرعة ، ليقتضى عليه ، حتى إذا انتبه العدو ، وجد نفسه محاطاً بجيش ، تخرج  
به الأرض عجيباً ، وتصطبغ به النواحي اصطخاباً ، فتنادى الحلفاء ، حتى  
سالت بهم الشعاب ، وجيش سيف الدولة من ورائهم مجد ، يمضى هنا ، ويسرع  
إلى هناك ، يأسر هؤلاء ، ويقتل من هؤلاء ، ويجلى أولئك عن أرضهم ، ويحل  
غيرهم مكانهم ، حتى مُرِّد المدافعون في كل مكان . ويكثر أبو فراس من ذكر  
الأماكن والقبائل ، لتكون شاهد صدق على دعواه . ثم مضى الجيش إلى نيمر ،  
وهناك أقبلوا تائبين مبدلين خضوعهم ، فعفا عنهم الأمير ، وأحلهم الجزيرة ،  
بعد خوف ، واستمع إلى هذا التصوير الجميل في شعر أبي فراس :

أمام مشيع ، سمح بنفس يعز على العشيرة أن يصابا  
ويأمرنا ، فنكفيه الأعادي همام لو يشاء كفى ، ونابا  
فلما أيقنوا أن لا غياث دعوه للمغوثة ، فاستجابا

وعاد إلى الجليل لم ، فعادوا وقد مدوا لصارمه الرقابا  
أحلهم الجزيرة ، بعد يأس أخو حلم إذا ملك العقابا  
ديارهم انتزعناها اقتسارا وأرضهم اغتصبتها اغتصابا  
ولو شئنا حينها البوادي كما تحمى أسود الغاب غابا  
إذا ما أنفذ الأسراء جيشا إلى الأعداء ، أنفذنا كتابا  
أنا ابن الضاريين الهام قدما إذا كره المحامون الضرابا  
ألم تعلم ، ومثلك قال حقاً بأنى كنت أثقها شهابا  
فأنت ترى أبا فراس يصف لك القائد سيف الدولة ، محبباً إلى جنده ،  
لا يضمن بنفسه في الوغى ، ويشركهم في حومة الدفاع ، ثم يصف لك يأس  
أعدائه من النصر ، وقدمهم إليه خاضعين منبئين ، وأجاد في تصوير خضوعهم  
بقوله : « عادوا ، وقد مدوا لصارمه الرقابا » . وقد استطاع سيف الدولة أن يذيقهم  
الأمن بعد الخوف . وكان هذا التأديب العنيف لهؤلاء القبائل ، قد أوحى إلى  
الشاعر بأنهم لن يحتاجوا إلى الالتجاء إلى السيف مرة أخرى ، بعد أن ذاق  
العصاة هذا البأس الشديد ، وأن كتاباً يرسل إلى الثائرين بعدئذ ، كفيل بأن  
يردهم إلى الطاعة والنظام .

كان سيف الدولة خليقاً أن يكتفى بقصيدة ابن عمه ، في وصف تلك الوقائع ،  
ولا سيما أن المتنبي لم يكن حاضراً ، ولكن يخيّل إلى ، أن ما فيها من مدحه  
لم يشف نفسه ، وأن أبا فراس قد أشرك نفسه معه ، في كل موضع فخر ، بل  
لقد ختمها — كما رأيت — بقوله : « أنى كنت أثقها شهابا » ؛ فطلب  
سيف الدولة من أبي الطيب ، بعد أن وصف له المعارك ، أن ينشئ فيها  
شعراً ، فأنشأ قصيدة بدأها بذكريات عزيزة لديه ، وربما كانت ذكريات  
أيام جهاده الأولى في الصحراء ، وقريب أن تثير مثل هذه الحوادث تلك  
الذكريات ، قال :

تذكرت ما بين العذيب وبارق    بحر عوالينا ، ومجرى السوابق  
وصحبة قوم يذبجون قنيصهم    بفضلة ما قد كسروا في المفارق  
وبعد غزل رقيق ، في غيداء وأغيد ، وبعض حكم أوحى المقام بها ، دخل  
في الغرض الذي أنشئت له القصيدة ، فبدأ ذلك باستفهام تعجبي ، من تفكير  
عقيل في الثورة ، والخروج على الطاعة ، فقال :

برأى من انقادت عقيل إلى الردى    وإشحات مخلوق ، وإسقاط خالق  
ثم تحدث عن الحرب ، التي دارت بين سيف الدولة والثأرين عليه ، ولكن  
كان لغيبته عن المعركة أثره ، في ضعف وصفها ، فلم يشعر بحركة الجيش ،  
والتقاء الجيشين ، ومطاردة أحدهما لصاحبه ، مما أجاد فيه أبو فراس ، وتفوق به  
على صاحبه . ولكن المتنبي تنبه إلى الباعث الذي دفع الثوار إلى الثورة ، واعتقادهم  
النجاح فيها ، فقد ظنوا أن سيف الدولة ، وقد اعتاد حياة الحضرة ، لا يلبث أن  
ينهزم في الصحراء ، ولا يقوى على حرب القفار ، فأروا من سيف الدولة ما انهيار  
له أملهم ، من قدرة على الصبر في البقاء ، والمعرفة بدروبها ، وقد قال في  
ذلك المتنبي :

توهمها الأعراب سورة مترف    تذكره البقاء ظل السراق  
فذكرتهم بلقاء ساعة غبرت    سماوة كلب في أنوف الخزائق  
وكانوا يروعون الملوك بأن بدوا    وأن نبئت في اللاء نبت التلافق  
فهاجوك أهلى في القلا من نجومه    وأبلى بيوتاً من أداحي التفلق  
وأصبر عن أمواه من ضيابه    وآلف منها مقبلة للودائق  
وتلح في شعر المتنبي أسفا منه على أن شغلته تلك الثورة عن حرب الروم ،  
إذ يقول :

فما حرموا بالركض خيلك راحة    ولكن كفاها البرقع للشوايق  
ولا شغلوا صم القنا بقلوبهم    عن الركز، لكن عن قلوبهم الماسيق

وصور المتنبي غيرا ، وقد أعدوا رماحا من الخضوع ، استطاعوا بها أن  
يهزموا جيوش سيف الدولة ، ولكن أبا فراس كان أدق تصويراً لخضوعهم  
وأقوى . ولعل هذه القصيدة لم تنفع سيف الدولة ، ولم يرها مكافئة للجهود التي  
بذلها ، في كبح جماح العصاة الثأرين ، فوصف له المارك مرة أخرى ، وربما  
أراد سيف الدولة ألا يستمر في عقاب هؤلاء العصاة ، وأن يسبغ عليهم عفوه ،  
فأوحى بذلك إلى شاعره ، ليكون ذلك وسيلة إلى العفو عنهم ، فأنشأ أبو الطيب  
قصيدة أخرى ، هجم فيها على غرضه ، لم يقدم له بغزل ولا نسيب ؛ فلمس دوافع  
هذه الثورة وعوامل نموها ، وأنها هذا الضبط والنظام ، الذي لم تألفه العرب ولم  
تعتده ، وقد أعجبهم ما لديهم من جياذ وفرسان ، فسولت لهم أنفسهم الخروج  
على النظام ، وشق عصا الطاعة ، قال المتنبي :

وفيك إذا جنى الجاني أناة      تظن كرامة ، وهي احتقار  
وأخذ للعواضر والبوادي      يضبط ، لم تعود نزار  
تشمه شميم الوحش إنسا      وتنكره ، فيعروها نثار  
وما انتقادت لغيرك في زمان      فتدرى ، ما المقادة والصغار ؟  
وأجاد المتنبي في وصف الحرب التي دارت بين سيف الدولة والثأرين ،  
وكيف فروا مهطعين ، لا يلوون على شيء :

مضوا متسابقى الأعضاء فيه      لأرؤسهم بأرجلهم عثار  
يشلهم بكل أقب ، نهـد      لفارسه على الخيل الخيار  
وكل أصم ، يعسل جانباه      على الكعبين منه دم مमार  
يفادر كل ملتفت إليه      ولبتـه لثعلبه وجار  
ومضى أبو الطيب في وصف هذه الحرب ، حتى إذا انتهى إلى أن العصاة :  
يرون الموت قداما ، وخلقا      فيختارون ، والموت اضطرار  
مضى يستمطف سيف الدولة عليهم ، بشق ألوان الاستعطاف ، ووقف على

ذلك قسماً كبيراً من قصيدته ، مما يدل على أن ذلك غرض قصد إليه ، أو أوحى إليه به ، وهو مع هذا الاستعطاف ، لا يمس عواطفهم بما يزرى بهم ، أو يحقرهم ، فيقول :

بنو كعب وما أثرت فيهم يد ، لم يدمها إلا السوار  
بها من قطعه ألم ونقص وفيها من جلالته افتخار  
لهم حق بشركك في نزار وأذن الشوك في أصل جوار  
لعل بنينك جنود فأول قرح الخيل المهار  
وأنت ترى من كل ما ذكرناه ، أن أبا فراس ملك عليه كل عواطفه ، ما أبلاه في هذه المعارك ، وما ناله فيها من ظفر ، فلم يشد بغيره ، ولم يتحدث عن سواه ، أما أبو الطيب فلم يكن يكتفى منه بذلك فحسب ، بل له دور اجتماعي ، يقوم به في بلاط سيف الدولة ، هو الإشادة ببطولة الأمير حيناً ، وتنبيه العصاة إلى ما في ثورتهم : من شغل سيف الدولة عن الروم عدوهم المشترك ، حيناً آخر ، والعمل على إصلاح ذات البين ، بين الأمير ورعيته ، لأنهم جنده الذين عليهم يعتمد في جهاده . ثم هل لي أن أنبه إلى إغفال أبي الطيب للدور الذي قام به أبو فراس في تلك المعركة ، وكان دوراً له قيمته وخطره ، كما ذكر التاريخ ، وكما سجله أبو فراس في شعره ؟ !

ورثي الشاعران أبا وائل تغلب بن داود سنة ٨٣٨ هـ ، ولم تكن سن أبي فراس تزيد على الثمانية عشر . وهنا نجد الفرق في اتجاه الشاعرين واضحاً ، ولا نتردد في أن نقول : إن شعر أبي فراس منشؤه الحزن الصادق ، فكان أقوى دلالة على هذا الحزن ، بينما كان الباعث للمتنبى على هذا الرثاء ، هو ما يجب عليه من مجاملته للأمير سيف الدولة ، ولهذا نرى أبا فراس ، قد كرس قصيدته كلها لأبي وائل وحزنه عليه ، بينما ترى المتنبى يكرس لذلك أقل القصيدة ، أما معظمها فللحديث عن سيف الدولة ، يحدثه حيناً عن فدائه لأبي وائل يوم أسر ، ويعزيه

حيناً ، داعياً له بطول العمر ، حتى يعزى بكل مولود . ولا تلمس في القصيدة  
حزناً قوياً عنيفاً ، كهذا الذي تلمسه في قصيدة أبي فراس ، التي كانت أكثر  
تصويراً لسمات أبي وائل ، وأدل على الحزن عليه ، وإن أسرف — وله من سنه  
عذر — في إظهار عواطفه ، إذ يقول :

كأنما دمعى من بعده صوب سحاب ، واكف ، وابل  
أرى المعالي ، إذ قضى نحبه تبكى ، بكاء الوالد الثاقل  
ولكنك تشعر باللهفة والحزن عايه ، عند ما تقرأ قوله :

ما أنا أبكيه ، ولكما تبسكيه أطراف القفا الذابل  
ما كان إلا حدثاً نازلاً موكلًا بالحدث النازل  
دان إلى سبل الندى والعلا ناء عن الفحشاء ، والباطل  
كان ابن عمى إن عمرا حادث كالليث ، أو كالصارم الصاقل  
كان ابن عمى عالماً ، فاضلاً والدهر لا يبقى على فاضل

أما قصيدة المتنبي فاعلم أقوى ما فيها هو حديثه عن نفسه ، ومقارعته  
للخطوب ، حين يقول :

إن نيوب الزمان تعرفنى أنا الذى طال عجبها عودى  
وفى ما قارع الخطوب ، وما آنسى بالمصائب السود  
وأما قوله :

فإن صبرنا ، فإننا صبر وإن بكينا ، فقير مردود  
وإن جزعنا له ، فلا عجب ذا الجزر فى البحر غير معهود  
فلا تشعر فيه بألم الفراق ، الذى تحس به فى شعر أبي فراس .

ورثى الشاعرمان أخت سيف الدولة سنة ٣٥٢ هـ ، وهما بعيدان عنه ، أما  
أبو فراس فكان فى الأسر ، وأما المتنبي فكان قد فارقه منذ سنة ٦٤٦ هـ ، وأرسلها  
إليه وهو بالكوفة ، وافتتحها بقوله :

يا أخت خير أخ ، يا بنت خير أب      كناية بهما عن أشرف النسب  
وهي قصيدة طويلة ، تصرف فيها بين تأبين الفقيده ، ومشاركة أخيها في  
حزنه ، إذ يقول له :

طوى الجزيرة ، حتى جاءني ، خبر      فزعت فيه بآمالى إلى الكذب  
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا      شرقت بالدمع ، حتى كاد يشرق بي  
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت      فكيف ليل فتي الفتیان فى حلب ؟!  
يظن أن فؤادى غير ملتهب      وأن دمع جفونى غير منسكب  
بلى ، وحرمة من كانت مراعية      لحرمة الجمد ، والقصاد ، والأدب  
وختمها بما أثاره الموت فى نفسه ، من خواطر حزينة .

أما قصيدة أبى فراس قصيرة ، لا تتجاوز أحد عشر بيتاً ، أوصاه فى أولها  
بالحزن لا بالصبر ، ومنتقد أبا فراس فى قوله :

إنى أجلك أن تكفى بعزيمة      عن خير مفتقد يا خير مفتقد  
فلاستسلام للحزن والبكاء ، ليس فيه من ضبط النفس ، ما هو خليق بأن  
يستمسك به عظماء الرجال ، ولكن لعل أبا فراس استمد وحيه من حاله فى  
الأسر ، وجرعه من البقاء فيه ، وختم قصيدته بتذكيره سيف الدولة بأنه أسير  
لم يفده ، مع أنه يفديه بنفسه وأهله وولده ، إذ يقول :

هذا الأسير المعنى ، لا فداء له      يفديك بالنفس ، والأهلين ، والولد  
ووصف الشاعران عيداً حزيناً ، كان فيه أبو فراس أسيراً ، لدى الروم ،  
وكان فيه المتنبي هارباً من مصر ، بعد أن أخفقت آماله فيها ، وسوف نتحدث  
عن ذلك فى فصل خاص ، نضيف إلى الشاعرين فيه وصف المعتمد بن عباد ،  
لعيد أقبل عليه ، وهو فى الأسر .

واختلفت طبيعة الفخر عند الشاعرين ، فبينما كان ماضى أسرة أبى فراس  
مصدر فخر له كما رأينا ، لم يكن المتنبي ممن يتحدث عن أسرته ، وكان يجعل

نفسه مصدر فخار هذه الأسرة ، يقول لجذته في رثائها :  
ولم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم ، كونك لي أما  
وتمدح أبو فراس بالكرم ، وطوى المتنبي ذكره . وافتخر المتنبي بالشعر  
ولم يجعله أبو فراس من كبير مفاخره ، ولم يفرق أبو فراس في الفخر بنفسه ،  
كما فعل المتنبي ، إذ قال :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى ؟ !  
وكل ما قد خلق الله ، وما لم يخلق  
محقر فى همى كشرة فى مفرق  
ولم ينشئ المتنبي قصائد فى الفخر بنفسه ، كما فعل أبو فراس ، وإنما كان  
يدخل حديثه عن نفسه والفخر بها فى ثنايا قصائده .

﴿ وبرغم ما بين الرجلين من نفور ، نرى أبا فراس قد تأثر المتنبي ، فى بعض  
ما جاء به من الشعر ، نلمس ذلك فى قول المتنبي :

ما كل من طلب المعالى نافذا فيها ، ولا كل الرجال فحولا  
وقول أبى فراس :

فما كل من شاء المعالى ينالها ولا كل سباق إلى المجد يهتدى  
وقوله أيضا :

وما كل طلاب من الناس بالغ ولا كل سيار إلى المجد واصل  
وفى قول المتنبي :

وترى المروءة ، والفتوة ، والأبوة ، فى كل مليحة ضراتها  
وقول أبى فراس :

كأن الحجا، والصون، والعقل، والتقى لدى ، لربات الحجال ، ضرائر  
وفى قول المتنبي :

هم المحسنون الكرى حومة الوغى وأحسن منه ، كرم فى المكارم

وقول أبي فراس :

ومن لم يشاهد كرم قومي في الوغى      فما ، فليشاهد كرم في المكارم

ويكاد يتفقدان في بيت ، هو قول المتنبي يمدح كافورا سنة ٣٤٩ هـ :

إذا نلت منك الود ، فاللأل هين      وكل الذي فوق التراب تراب

وقول أبي فراس وهو أسير [ بعد سنة ٣٥١ هـ ] :

إذا صح منك الود ، فالكل هين      وكل الذي فوق التراب ، تراب

---

# عيد حزين

## بين ثلاثة من الشعراء

اما أولهم فالمتنبى ، الذى تحطمت آماله فى كافور ، وخشى على نفسه ،  
سوء المغيبة ، وأصبحت حياته فى مصر مظلمة موحشة ؛ فمضى ، يعد العدة  
للرحيل عنها ، ورأى فى العيد ، وانشغال القوم به ، أفضل فرصة له به ، فهو  
إذ يستقبل العيد ، خائفاً يترقب ، حاقداً على هذا الذى لم يظفر منه بأمل ، ولم  
تتحقق على يديه له أمنية — فاضت عاطفته بقصيدة طويلة ساخطة ، أودع فيها  
ما جاش بصدوره يومئذ ، من انفعالات عنيفة نائرة ، تلمسها من أول كلمة فى  
قصيدته ، التى بدأها بقوله :

عيد ، بأية حال عدت يا عيد بما مضى ، أم لأمر فيك تجديد ؟  
فأنت تحس بالغضب ، والحنق ، والسخرية ، من أن يكون هذا اليوم  
القادم عليه عيداً ، كما تحس بذلك كله ، من خطابه للعيد ، وسؤاله إياه : أأقبل  
عليه ، بما اعتاد أن يأتى به ، من آمال قد تبددت ، وأحلام تحطمت ، أم يحمل  
له فى طياته ، فرجا من كربه ، وتحقيقا لبعض أمله ؟ ولسكن المتنبى ، لم يمحض بعيدا  
فى رجائه ، بل تنبه إلى الوحشة ، التى تحيط بحياته ، فى دار غربة ، نائيا عن  
محوطه بالحب والحنان ، فقال :

أما الأحبة ، فالبيداء دونهم فليت دونك بيذا ، دونها بيد  
وكانه يعتذر إلى نفسه من فراق هؤلاء الأحبة ، وأنه ما دفعه إلى هذا  
الفراق ، سوى طلابه للملا ، وأمله فى نيل المجد ، وقد أقبل المتنبى إلى مصر ،  
وملأ إهابه آمال ، فيقول :

لولا العلا ، لم تجب بي ما أجوب بها وجناء حرف ، ولا جرداء قيدود  
 ثم يأخذ المتنبي في الحديث عن قلبه الذي حطمه الدهر ، فلم يعد مفتوحا  
 لجمال أسر ، ولا مأخوذا بسحر الأغاريد ، وكأن ما يناله مما يعده الناس متعة ،  
 هم وتسبيد . وكيف تحلوه تلك المتع ، وهو بعيد عن أهله ، وأحبه نفسه ، ويبدو  
 أن طيف هؤلاء الأهل ، قد استيقظ بعنف في خياله ، بعد أن وجد أن بعده  
 عنهم لم يأت من الثمار بما كان يرجوه ، ويمضي متحدثا عن خيبة آماله في مصر ،  
 التي لم يمن منها سوى وعود لم تتحقق . وهنا يصب المتنبي جام غضبه على كافور ،  
 ولا يدع نقيصة ، إلا وسمه بها ، وكأن عيب كافور ، قد طغى في نظره حتى صار  
 عيبا في المصريين جميعا ، أو في حاشية الأمير على الأقل ، فأخذ ينعى عليهم  
 كذبهم ، وبخلهم ، ودناءتهم ، وقذارتهم ، ويقول :

إني نزلت ، بكذابين ، ضيفهم عن القرى ، وعن الترحال ، محدود  
 جود الرجال من الأيدي ، وجودهم من اللسان ، فلا كانوا ، ولا الجود  
 ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم إلا وفي يده من نتنها ، عود  
 من كل رخو وكاء البطن ، منفثق لافي الرجال ، ولا النسوان ، معدود  
 ويمضي المتنبي في هجاء كافور ، منددا بسادات مصر ، الذين تركوا كافورا ،  
 يحكم ، ويسود ، وما خلق العبد للسيادة ، بل للضرب بالعصا . ولا أريد مناقشة  
 المتنبي في تلك الآراء ، التي أملاها عليه ثورته ، وإخفاقه في آماله ، وكان قوى  
 التعبير عن نغمته ، وغضبه .

والشاعر الثاني أبو فراس الذي أقبل عليه العيد ، وهو أسير في بلاد الروم ،  
 وقد اكتفى في استقباله ، بتسجيل ما يملأ قلبه من الكرب ، ونفسه من العناء ،  
 وما انسدل على ناظره من سواد ، حجب عن عينيه رؤية النور والجمال ، ثم مضى  
 خياله يخلق فوق داره هناك ، بمنبج في الشام ، فأحس بالوحشة تكتنف جنباتها ،  
 ورأى أهله ، يستقبلون العيد ، لا كما اعتادوا استقباله ، في طرب وبهجة . ولم

يروا في طلعه حسنا ، ولا جمالا ، ويختم مقطوعته متمجبا من أحداث الدهر ،  
وأعاجيبه ، إذ يقول :

يا عيـد ، ماعدت بمحبوب على معنى القلب ، مكروب  
يا عيـد ، قد عدت على ناظر عن كل حسن فيك محبوب  
يا وحشة الدار التي ربها أصبح في أثواب مروب  
قد طلع السيد على أهلها بوجه لا حسن ، ولا طيب  
ما لي وللدهر ، وأحداثه لقد رماني بالأعجيب  
وأبو فراس قد ركز في هذه الأبيات القليلة ، ما دار بنفسه يومئذ من الحزن  
والأسى ، وعميق الذكريات ، ولم يوجه نغمته إلى أحد سوى الدهر .

والشاعر الثالث ملك سبيء الخط ، هو المتمد بن عباد ملك إشبيلية  
بالأندلس ، فقد هاجمه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هـ ، وأسره ونفاه  
إلى أغمت ، في جنوبي مراکش بإفريقية . وفي يوم عيد دخلت عليه بناته  
السجن ، وكن يفرزن للناس بالأجرة ، حتى لقد غزلن لمن كان في خدمة أبيهن  
من قبل ، فلما دخلن عليه ، رآهن في ثياب أخلاق ، فعادت إلى نفسه ، ذكريات  
حياته الهائلة السالفة ، ومجده الغابر ، وما كانت بناته يرفلن فيه : من سندس ،  
وإستبرق . واستمع إلى تلك الموازنة الحزينة ، في قوله :

فيما مضى ، كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمت ، مأسورا  
ترى بناتك في الأطمار ، من عدم يفرزن للناس ، ما يمكن قطعيرا  
ثم يستمر في تصويرهن ، وقد دخلن للتسليم عليه ، بأبصار خاشعة ، وقلوب  
كسيرة ، وأقدام حافية ، ووجوه يبدو عليها الهزال والفضى ، فيقول :  
برزن نحوك للتسليم ، خاشعة أبصارهن ، حسيرات ، مكاسيرا  
يطأن في الطين ، والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا ، وكافورا  
فهذه الصورة الزرية لبناته ، ويسمى الذل والهوان البادية على وجوههن ،

وحفاء أرجلهم ، كل أولئك قد أثار في نفسه ، أشد الذكريات إبلاما ، واستمع  
إليه يوازن بين حاله ، فيقول :

قد كان دهرك ، إن تأمره ، ممثلا فرك الدهر منهيًا ، ومأمورا  
وهنا تبدوله الحياة ، وما قد يكون فيها من مجد حلما ، لا تلبث الأيام  
أن تبدده :

من بات بعدك في ملك ، يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا  
وهكذا استقبل هؤلاء الشعراء الثلاثة أعيادهم ، في حزن وكآبة ، أما المتنبي  
فلآماله المحطمة ، وقد طال نفس قصيدته ، واستطاع أن يثير في أنفسنا السخرية  
ممن كان سبب تحطيم هذه الآمال ، وأما أبو فراس فكان كالمناجى لنفسه ، الطاوى  
لأحشاء فؤاده على داره البعيدة هناك في منبع ، وأما المعتمد فإننا نبصر عبراته  
تتساقط من عينيه ، ونحس بزفراته ، ونسمع أناته ، وتخيّل تلك الأميرة البائسة ،  
وقد أحاطت بعائلها المهيض ، تندب حظها ، وتذكر أيام مجدها . ولالعيد لدى  
الملوك بهجة ورواء ، وهو مظهر من مظاهر الأبهة ، ورفعة الشأن ، ومجد السلطان .

## رأيته في الشعر المعاصر

لم تظهر قصيدة في شعر أبي فراس : من الشهرة ، بما ظفرت به قصيدته  
الرائية ، التي بدأها بقوله :

أراك عصي الدمع ، شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ، ولا أمر؟!  
فهي أكثر قصائده دوراناً على الألسنة ، وقد أغرت بعض الأدباء بتشطيرها  
حيناً ، وتخمينها حيناً آخر ، ومعارضتها مرة أخرى ، ومن شطر هذه القصيدة ،  
الأستاذ الكناني الأياري سنة ١٨٩٦ م . وليس في تشطيره من جديد ، سوى  
زيادة عدد الأبيات ، وكان عمل المشر أن كرر المعنى ، أو فصله بعض التفصيل  
وهاك نموذجاً لما فعل : قال أبو فراس :

ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوأته عمرو  
فشطره الكناني بقوله :

ولا خير في دفع الردى بمذلة إذا لم يكن عز ، فإن الردى خير  
ومن يرتضى رد الردى بمعة كما ردها يوماً بسوأته عمرو؟!

وعلى هذا النسق يسير ، لا يأتي بمعنى جديد ، ولا يكمل معنى جاء به الشاعر  
الأول ، ولا ريب أن ما جاء به الكناني شديد الضعف ، بموازنته بما جاء به  
أبو فراس . ثم عاد الكناني فشرح الأصل والتشطير ، يشرح الكلمات اللغوية  
أولاً ، ثم يعود إلى الشرح الإجمالي ، وسمى عمله : إنباس الجلاس ، بتشطير  
وشرح قصيدة أبي فراس .

وخمس هذه الرائية الجنيهي ، المعاصر للكناني ، وهذا التخمين أقل قوة  
من تشطير معاصره ، وقد أضعف القصيدة ، وأنهك معناها ، وكثيراً ما كان

يلتمس الوصول إلى البيت ، بمعان ليست في الصميم ، كما ترى في تخميس يتي  
أبي فراس :

وإني لنزال بكل مخوفة      كثير إلى نزالها النظر الشرز  
وإني لجرار لكل كتيبة      معودة ألا يخل بها النصر  
خمسهما الجنبهين بقوله:

وليس لها ما بين لين وعطفة      وبين الجفا والصد أدنى مسافة  
لقد صرت منها في ارتعاد ورجفة      وإني لنزال بكل مخوفة  
كثير إلى نزالها النظر الشرز

فيا سعد ، مهلا ، ليس نأبي لوحشة      من الأهل ، لا بل مرعجات محبة  
وإني من قوم ، كرام أعزة      وإني لجرار لكل كتيبة  
معودة ألا يخل بها النصر

فأنت ترى ضعف التأليف ، وكيف كان الشاعر يلتمس المعاني ، التي تصل  
به إلى البيت لأدنى ملابسة ، وكيف إن الجمع بين الغزل والفخر أضعف كليهما ،  
ولكنك تحس بقوة القصيدة ، منفردة عن التشطير والتخميس .

وعارض البارودي ، وهو في المنفى ، تلك القصيدة الرائية ، التي أنشأها  
أبو فراس ، وهو في الأسر ، وافتخر الشاعران في القصيدتين ، وبدأ أحدهما بالغزل .  
كانت طبيعة الغزل في القصيدتين ، مستمدة من موقف الشعارين ، فاقببس  
الحديث عن الحب من ذلك الموقف مشاعره وإحساساته ، أما أبو فراس ، فقد  
أنشأ قصيدته في أيام أسره الأولى ، عندما كان الأمل يملأ قلبه ، في أن سيف  
الدولة سيسرع إلى فدائه ، وهو من أجل ذلك يبدي الجلد والصبر ، وإن كان  
لا يستطيع بينه وبين نفسه أن يخفي اللوعة والأسى ، فهو أمام الناس جلد صبور ،  
حتى إذا جن الليل وانقره بكى مله شاء له البكاء .

هذا الخاطر الذى كان يملأ نفسه ، هو اذى أوحى إليه بهذا الشعور ،  
عندما تحدث عن الحب ، فقال :

أراك عصى الدمع ، شيمتك الصبر      أما للهوى نهى عليك ، ولا أمر؟!  
بلى ، أنا مشفق ، وعندى لوعة      ولكن مثلى ، لا يذاع له سر  
إذا الليل أضواني ، بسطت يد الهوى      وأذلت دمعاً ، من خلائقه الكبر  
تكاد تضىء النار بين جوانحي      إذا هى أذكتها الصباية والفكر  
وتستطيع أن ترى أثر موقفه فى مبدأ الأسر جلياً ، فى غزل هذه القصيدة ،  
وأكد ألمس فيها ، نوعاً من الرمز ، والإيماء ، وبهذا ، نستطيع أن نفهم ، كيف  
إنها علته بالوصل حيناً ، إذ يقول :

معلتى بالوصل ، والموت دونه      إذا مت ظمأنا فلا نزل القطر  
وكيف إنها تجاهلته ، حيناً آخر :

تسألنى ، من أنت ؟ وهى عليمه      وهل بفتى مثلى على حاله نكر؟!  
فقلت كما شاءت ، وشاء لها الهوى :      قتيلك ، قالت : أيهم ؟ فهمو أكثر  
فقلت لها : لو شئت لم تتعنتى      ولم تسألنى عني ، وعندك بى خبر  
فقلت : لقد أزرى بك الدهر بعدنا      فقلت : معاذ الله ، بل أنت ، لا الدهر  
وما كان للأحزان لولاك مسلك      إلى القلب ، لكن الهوى للبلاجر  
وينتقل أبو فراس بعدئذ ، انتقالاً طبيعياً إلى الفخر بنفسه ، إذ يقول :  
فلا تنكرينى ، يا ابنة ، العم ، إنه      ليعرف من أنكرته البدو والحضر  
ولا تنكرينى ، إننى غير منكر      إذا زلت الأقدام ، واستنزل النصر

وهنا وجد المجال فسيحاً ، للحديث عن خصاله الحربية ومزايه ، فتحدث  
عن أنه ميمون الطالع ، قائد مظفر ، لا يخشى المعارك المخوفة ، بل يخوض غمارها ؛  
حتى تروى البيض ، وتشبع الذئاب والذسور ، لا يغتال عدوه ، ولا يفجؤه ، بل  
يرسل إليه النذر تخيفه ، وتحذره ، ثم يصور لك إقدامه فى صورة بارعة ، إذ يقول :

ويارب دار ، لم تحفنى ، منيعة طلعت عليها بالردى ، أنا ، والفجر  
فهذا حصن منيع ، قد وثق بنفسه ، ولكن لم يلبث الفجر أن قاد إليه  
الهلاك ، عندما صعد إليه أبو فراس ، يحمل له الردى . وتحدث الشاعر عن  
احترامه للمرأة ، حتى لا تستطيع شجاعته إلا أن تلقى بسلاحها أمامها ، فيعفو  
عن قومها ، ويرد إليهم أسلابهم ، ثم هو رجل ، لا يطغيه الغنى ، ولا يثنيه  
الفقر عن الكرم ، وهو فى كل هذا الحديث ، قوى ، يشيع فى أبياته روح الأمل  
وانتقل بعدئذ إلى حديث أسره ، فلم ينسبه إلى ضعف بدر منه ، بل إلى  
قضاء غلاب ، لا يستطيع امرؤ أن يفلت منه .

وقد كان الأمل يملأ شعره فى هذه القصيدة ، ولهذا رأيناه يستقبل الأسر ،  
بصدر رحب ، لا يمانه بأن قومه ، لا بد ذا كروه ، وفادوه ، فليس عندهم من  
يملأ مكانه ، إذا غاب .

ويحتم أبو فراس قصيدته كما سبق أن ذكرنا ، مفتخراً بقومه ، الذين يحتلون  
فى قومهم ، مركز الصدارة ، ولا يقبلون دونه مكانا .

أما البارودى ، فقد كان غزله كذلك ، مستمداً من موقفه ، فإذا كان  
أبو فراس مؤملاً ، يخفى آلامه ، فإن البارودى — وقد جفت آماله — لا يجد  
بدأً من أن يتحدث ، ببعض ما يشعر به ، من أسى وحزن ، وإن كان يخفى  
فى قلبه من اللوعة أكثر مما يبين ، فتلون غزله بهذا اللون ، فرأيناه يبوح بالحب ،  
لا ينهائى عن ذلك زجر ، ولا عتاب ، وهو يرى الحب — وربما كان يرمز به  
إلى مصيره — أسراً مقدوراً ، ليس لاسرىء فيه من نهى ، ولا أمر ، وإنه  
ليقاسى من هذا الحب أعنف ما يقاسيه إنسان ، ومع هذا لا يبدي كل ما يحمله  
صدره من الوجد ، ولا يترك دموعه تهيم ، لا صبرا فى انتظار تحقيق أمل ،  
ولكن حياء وكبرا ، واستمع إليه يقول :

طربت ، وعادتني الخيلة ، والسكر وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر

كأنى مخور ، سرت بلسانه معتقة ، مما يضن بها التجر  
صريع هوى ، يلوى بى الشوق ، كلما تلاً لبرق ، أو سرت ديم غزر  
إذا مال ميزان النهار ، رأيتنى على حشرات ، لا يقاومها صبر  
يقول أناس : إنه السحر ضلة وما هى إلا نظرة دونها السحر  
فكيف يعيب الفاس أمرى ، وليس لى

ولا لامرئى ، فى الحب ، نهى ، ولا أمر

ولو كان مما استطاع دفاعه لألوت به البيض المباتير والسمر  
ولكنه الحب الذى لو تعلقت شرارته بالجر ، لا حترق الجمر  
على أنتى كاتمت صدرى حرقة من الوجد ، لا يقوى على حملها صدر  
وكفكت دمعاً ، لو أسلت شثونه على الأرض ، ماشك امرؤ أنه البحر  
حياء وكبرا ، أن يقال ترجحت به صبوة ، أو فل من غربه الهجر  
فأنت ترى الغزل مستمداً من حاله ، ولو أنك جعلت ما يهواه وطنه ،  
وأدرت عليه الحديث لم تبعد .

لم يطبل البارودى بعدئذ فى الحديث عن نفسه ، كما فعل أبو فراس ، بل  
اكتفى بيت واحد ، يحمل خيبة الآمال ، إذ قال :

وإنى امرؤ ، لولا العوائق ، أذعنت لسلطانه البدو المغيرة ، والحضر  
وكان المجال أمامه فسيحاً ، لتعداد مواقفه فى الحرب والسياسة ، ولكن  
يبدو أن يأسه ساعته ، قد تغلب عليه ، فصرفه عن الحديث عن ماض ، لاسبيل  
إلى استئنافه ، على عكس أبي فراس القوى الأمل فى أن يعود كما كان ، البطل  
المفدى ، وكان المجال فسيحاً كذلك أمام البارودى ، للحديث عن نفيه ، والدفاع  
عن نفسه ، كما تحدث أبو فراس عن أسره ، ولكنه لم يفعل ، ولعله اكتفى فى  
ذلك ، بما تحدث به ، فى قصائد أخرى كثيرة .

أما الذى أطال الحديث فيه ، حتى استغرق معظم قصيدته ، على عكس

أبى فراس ، فحديثه عن آبائه ، وقد ذكروا أنه ينحدر من الماليك الشركسية ،  
فاتخذ من ذكراهم وسيلة ، يشبع بها عاطفته في الفخر ، ويسلى نفسه بمصايرهم ، وسجل  
لهؤلاء الأسلاف شجاعتهم وكرمهم ، وهنا يستعير خيالا بدويا ، إذ يقول :

لهم عدم رفوعة ، ومعقل وألوية حمر ، وأفنية خضر  
ونار لها في كل شرق ومغرب مدرع الظلماء ، السنة حمر  
تمد يداً نحو السماء ، خضبة تصافحها الشعرى ، ويلثمها الغفر  
وختم قصيدته ختاماً يأساً حزيناً ، رثى فيه قومه وقد مضوا ، وسوف يمضى  
على إثرهم :

لعمرك ما حى ، وإن طال سيره يعد طليقاً ، والمنون له أسر  
وما هذه الأيام إلا منازل يحل بها سفر ، ويتركها سفر  
فلا تحسبن المرء فيها بخالد ولكن يسمي ، وغايته العمر  
أما أبو فراس فقد ختم قصيدته ، مائلاً شقيقه ، من الفخر بقومه ، الذين  
كانوا يومئذ قابضين على الملك والسلطان .

هذا وقد ظفرت قصيدة أبى فراس ، بشهرة في العالم العربى الحديث ،  
كما رأينا ، وغنت أم كلثوم بعض غزلها ، وسار على الألسنة بعض أبياتها كقوله :  
ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ، ولا بحر  
وقوله :

سيد كرنى قومي ، إذا جد جدم وفى الليلة الظلماء ، يفتقد البدر  
وقوله :

ونحن أناس ، لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين ، أو القبر  
وقوله : « ومن يخطب الحسنة لم يغلبها المهر » .  
وأما قصيدة البارودى ، فلم تظفر من الشهرة بنصيب .

# أبو فراس

## بين نقاد العرب والمستشرقين

يحفظ التاريخ أول ما يحفظ من هذه الآراء ، رأى أديب عاصر أبا فراس وتذوق شعره ، وأعجب ببلاغته ، وهو صاحب ابن عباد ( ٣٢٦ — ٣٨٥ هـ ) . وقد وضع رأيه في جملة موجزة ، كهذه الجمل التي كان يوقع بها ، وهو في دست الحكم ، ولعل إيجازها هو السر في سرعة انتشارها ، ومسهولة دورانها على الألسنة ، ويكاد كل من أرخ لأبي فراس ينقلها ، وكأنه يرى فيها صورة لما في نفسه ، من الإعجاب بأبي فراس ، والتقدير لشعره ، وهي قول صاحب : « بدى الشعر بملك ، وختم بملك » يعني امرأ القيس ، وأبا فراس .

هذه الجملة اعتراف من صاحب بشاعرية أبي فراس ، وأن من جاء بعده لا يدانيه في تلك الشاعرية . ويشاركه صاحب في الاعتراف بشاعرية أبي فراس ، كل من يتذوق شعره العاطفي الصادق . وأما حكمه بأن من جاء بعد أبي فراس لا يساويه ، فحكم نناقشه فيه ، فقد جاء بعده الشريف الرضي ، وأبو العلاء ، ولعل عذره في هذا الحكم أنه لم يعيش ويدرك نضج الشريف ، فإن صاحب توفي ، وعند الرضي زهاء خمس وعشرين سنة ، فلم يكن في هذه السن ، ممن يستطيعون أن يكسفوا شمس أبي فراس ، وأما أبو العلاء ، فكان في نحو الثانية والعشرين من عمره ، لم يبلغ بعد مبلغ أبي فراس .

ومهما يكن من شيء ، فإن صاحب كان معجباً بشعر أبي فراس ، أيما إعجاب ، ولعل أكبر أسباب إعجابه بهذا الشاعر ، ما كان له من شخصية قوية يتميز بها من باقي الشخص ، روى الثعالبي أن بديع الزمان الهمداني قال :

« قال الصاحب أبو القاسم يوماً لجلسائه ، وأنا فيهم ، وقد جرى ذكر أبي فراس :  
« لا يقدر أحد أن يزور على أبي فراس شعراً » ، فقلت : « ومن يقدر على ذلك  
وهو الذي يقول :

رويدك ، لا تصل يدها ببياعك ولا تفر السباع إلى رباعك

ولا تمن المدو على ، إني عيّن ، إن قطعت فمن ذراعك »

فقال الصاحب : « صدقت » ، قلت : « أيد الله مولانا ، قد فعلت » .

الشق الأول من هذه الرواية يؤيد ما ذهبنا إليه من إيمان الصاحب بقوة  
شخصية أبي فراس ، أما الشق الثاني ، وهو استطاعة البديع أن يدخل في شعر  
أبي فراس ما ليس فيه ، وتصديق الصاحب لذلك فأمر نشك فيه ، ونرجح أنه  
لم يقع ، ويبعثنا على الشك فيه ثلاثة أمور : أولها ما عرف عن مجالس الصاحب  
من الهيبة له والإجلال ، والتماس جلسائه ما يرضيه ، والتصديق لما يقول ، تصديقاً  
ربما لا يكون مبعثه الإيمان ، بل الرغبة في نيل المنزلة عند الصاحب ، وحسن  
رضاه . والقصص في ذلك كثيرة ، تدلنا على شدة إعجاب الوزير بنفسه ، وتلمس  
جلسائه ما يسره ويرضيه . وثانيها أن هذه القطعة بعيدة عن روح أبي فراس ،  
فهو لم يدع يوماً أعداءه ومنافسيه سباعاً ، بل كانوا في نظره صغاراً ، ولا أكاد  
أعتقد أن ذلك يخفى على فطنة الصاحب ، أو يغيب عنه ، ولقد علق الثعالبي على  
تلك القصة بقوله : ولعمري إنه قد أحسن ، ولكن لم يشق غبار أبي فراس .  
وثالثها أن البيتين اللذين ذكرهما البديع ، ليسا بشاهدين لدعواه ، فليس فيهما  
ما ينفي قدرة أحد أن يدخل في شعر أبي فراس ما ليس منه ، بل هي بعيدة عن  
ذلك كل البعد . والذي أرجحه أن البديع هو مخترع تلك القصة ، يبين بها  
ما طالما أذاعه من قوة بديهته .

نقل هذا الرأي عن الصاحب الثعالبي ، الذي ولد قبل وفاة أبي فراس

( ٣٥٠ — ٤٢٩ هـ ) ، في الفصل الذي عقده للشاعر ، في كتابه : يتيمة الدهر ،

ويكاد هذا الفصل يكون أكبر فصل كتب عن أبي فراس في العصور الأولى .  
وكان الثعالبي شديد الإعجاب به ، يقول عنه في أول هذا الفصل : « كان  
فرد دهره ، وشمس عصره ، أدبا وفضلا ، وكرماً ونبلاً ، ومجداً وبلاغة وبراعة ،  
وفروسية وشجاعة ، وشعره مشهور ، سائر بين الحسن والجودة ، والسهولة ،  
والجزالة ، والمذوبة ، والفخامة ، والحلاوة ، والمتانة ، ومعه رواء الطبع ، وسمّة  
الظرف ، وعزة الملك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله ، إلا في شعر عبد الله بن المعتز ،  
وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ، ونقّدة الكلام » .

وهذا الفصل يحوى قطعة من أخبار أبي فراس ، مع ابن عمه سيف الدولة ،  
وما أنشأه فيه من شعر ، ثم ذكر مختارات من شعره في الفخر ، وقد يعلق على  
بعض ما يورده منها ، كما فعل عند ما روى قوله :

ولما ثار سيف الدين ثرنا      كما هيّجت آسادا غضابا  
وكنا كالسهم ، إذا أصابت      مراميهما ، فراميهما أصابا  
قال الثعالبي : هذا أحسن ما قيل في معناه ، وقد أخذه الأستاذ أبو العباس  
أحمد بن إبراهيم الضبي في كتاب فتح . وكما فعل عند ما نقل قوله :  
وما زادت عن العشرين سنئ      فما عذر المشيب إلى عذارى ؟ !  
قال الثعالبي : أخذه من قول أبي نواس :

وإذا عددت السن كم هي ؟ لم أجد      للشيب عذرا للنزول براسي  
وقال عند ما نقل بيت أبي فراس :  
يقلن له : السلامة خير غنم      وإن الذل في ذاك المقال  
ما أظرف هذا البيت ، وما أصدقه !

كما أنه في بعض الأحيان ، يذكر الظروف التي أنشئت فيها القصيدة .  
وعلى هذا المتوال يسير ، فيما اختاره لأبي فراس في الإخوانيات ، والغزل ،  
والنسيب ، والأوصاف ، والتشبيهات ، والحكمة ، والموعظة .

وقد رأى الثعالبي أن يخص روميات أبي فراس بفصل خاص ، فدعاها من غرره ، وصدرها بقوله : « وقد كانت تصدر أشعاره في الأسر والمرض واستزادة سيف الدولة ، وفرط الحنين إلى أهله وإخوانه وأحبابه ، والتبرم بحالته ومكانه ، عن صدر حرج ، وقلب شج ، تزداد رقة ولطافة تبكي سامعها ، وتعلق بالحفظ لسلامتها » ، وقد نقل الثعالبي في هذا الفصل طائفة صالحة من هذه الروميات ، يذكر ظروف بعض القصائد ، ويعلق على بعض أبياتها ، كما فعل في قصوده السابقة ، وبعدها ينقل بعض مزدوجته الطردية ، وينقل أن صاحب كتب على ظهر الجزء المشتمل على هذه المزدوجة :

أروح القلب ببعض الهزل تجاهلا مني ، بغير جهل  
أمرح فيه مزح أهل الفضل والمزح أحيانا جلاء العقل

حتى إذا انتهى الثعالبي من ذلك قال : « قد أطلت عنان الاختيار من محاسن شعر أبي فراس ، وما محاسن شيء كله حسن ؟ ! وذلك لتناسبها ، وعذوبة مشارعها ، ولا سيما الروميات ، التي رمى بها هدف الإحسان ، وأصاب شاكلة الصواب ، ولعمري إنها ، كما قرأته لبعض البلغاء ، لو سمعته الوحوش أنست ، أو خوطبت به الخرس نطقت ، أو استدعى به الطير نزلت » .

وإذا كان الثعالبي قد غنى في كتابه ، بعرض نماذج كثيرة من شعره ، فإنه لم يعن كثيراً بحياته ، ولا بتحليل نفسيته ، ولا بتحديد الحوادث ، ولا بإعطاء القارى صورته صحيحة كاملة للشاعر .

وابن خلكان ( ٦٠٨ — ٦٨١ هـ ) في كتابه وفيات الأعيان ، ينقل في الفصل الذي عقده لأبي فراس ما قاله الثعالبي في وصفه ، ذلك الوصف الذي صدر به مختارانه ، ولا يطيل ابن خلكان ، في إبراد أمثلة لشعره ، بل يكتفى بالقليل ، ثم يقول : « ومحاسن شعره كثيرة » . ونقل ابن خلكان لقول الثعالبي بلا تعليق عليه إقرار له .

ويمتاز صاحب الوفيات ، بإيراد نسب أبي فراس ، ومحاولة تحديد الحوادث البارزة في حياته ، فهو يعنى بذكر تاريخ ولادته ، وتاريخ وفاته ، وتاريخ قتل أبيه ، وتاريخ أسره ، وهو في ذلك ينقل الروايات المختلفة ، من غير أن يرجح بعضها على بعض غالباً ، لكنه استنبط من حديثه لابنته قبل موته أن أبا فراس لم يقتل ، أو يكون قد جرح وتأخر موته ، ثم مات من الجراحة . كما أنه ينقل الروايات المختلفة في أسره وسبب قتله ، ولا يرجح واحدة على واحدة ، وإنما يكتفى بقوله : « والله أعلم » .

ولم يظفر أبو فراس بعد ذلك بدراسة مفصلة . إلى عصرنا الحاضر ، واكتفى مؤرخوه بدراسة بعض نواحي حياته ، كحديث أسره أو موته ، وبأحكام عامة ، على شعره .

وفي عصرنا عقد الأستاذ جورجى زيدان له فصلاً ، في الجزء الثانى من كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية . وليس في هذا الفصل شيء جديد ، بل أخذ المؤلف كل ما فيه أخذاً ، يكاد يكون حرفياً من كتابى الثعالبي ، وابن خلكان ، هذا إذا استثنينا أن المؤلف أخبرنا بأن الأستاذ دوفورك ، قد عنى بترجمة بعض أشعاره إلى الألمانية ، حيث طبعت في ليدن سنة ١٨٩٥ م .

أما الأستاذ فؤاد أفرام البستاني ، فقد نشر في مجلة المشرق سنة ١٩٢٨ م ( من ص ٢٦٥ — ٢٧٤ ) بحثاً مطولاً عن أبي فراس ، وقد جعل هذا البحث مقدمة للمختارات ، التى اختارها من شعر أبي فراس ، ونشرها في مجموعته : الروائع .

بدأ البستاني هذه الدراسة ، بتلخيص رأيه في أبي فراس ، إذ قال : أبو فراس شاب لم يتمتع بشبابه ، وأبو فراس أمير لم يوفق في إمارته ، وأبو فراس شقى توفرت أسباب شقائه ، وأبو فراس شاعر بملأهى الشباب ومفاخر الإمارة وأعباء الشقاء ؛ ثم أخذ يدرس أبا فراس : الرجل ، فأوجز الحديث عن أسرته ، وعن شباب

الأمير في بلاط سيف الدولة ، وحرب الروم وولايته منبج ، ثم عن أسره ، وهو يرى أنه أسر مرتين ، وذلك ما سبق أن ذكرنا ضعفه ، وتحدث بعدئذ في إنجاز أيضا ، عن قتل أبي فراس ، ومرجعه في كل ما ذكرناه ، الثعالبي وابن خلكان . تعرض الكاتب بعدئذ لأبي فراس الشاعر ، فتحدث عن ديوانه وجامعه ، ثم أخذ في معالجة فنون شعره من فخر ووصف ، وأوجز في ذلك ، حتى إذا وصل إلى العواطف ، والحديث عنها غلى ، وقال : « لا غرو إن سمينا أبا فراس شاعر العواطف ، فهو أخلص شاعر عرفته الآداب العربية ، وأصدق شاعر في تصوير إخلاصه ، لا يستثنى من جمهورهم أحد » .

وهذا حكم فيه مبالغة ، وإذا كان الشاعر قد أجاد غاية الجودة في قصائده : الروميات ، فغيره من الشعراء أوفر منه حظا ، وأقوى تعبيراً عن عاطفة الحب مثلا . ودرس فؤاد بعد ذلك شعره في الأسر درساً مجملا ، وينتهي به الدرس ، إلى موافقة صاحب بن عباد في حكمه على الشاعر .

وفي مقتطف نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٢٩ ، نشر الأستاذ كامل كيلاني مقالين : حدثنا فيهما عما كان بين المتنبي وأبي فراس ، من نفار وخصومة ، وقد عالج في المقال الأول أسباب هذه الخصومة ، وأجاد في بيان هذه الأسباب ، وفي المقال الثاني رسم هذه المناظرة التي دارت ، عندما أنشد المتنبي قصيدته اليمية ، والأستاذ يقبل القصة التي أنشئت حول هذه القصيدة ، وقد قلنا إن أكثر المؤرخين على أن القصة في تفصيلاتها لم تقع ، ولكنها تلتقى شعاعا من الضوء على ما حدث في مجلس سيف الدولة .

وكتب الأستاذ سامي الكيال في كتابه : سيف الدولة وعصر الحمدانيين — دراسة لأبي فراس فيها تحقيق ومحاولة للوصول إلى الحق ، وقد أكل خيال المؤلف ما أعوزه من حوادث التاريخ ، كما أنه حلل مزدوجته الطردية تحليللا جيدا .

ولعل أوسع دراسة ظهرت له إلى اليوم ، هي تلك التي كتبها السيد العامل ، وقد تحدث فيها عن حياته وشعره ، ووازن بينه وبين المتنبي ، وذكر مجموعة كبيرة من شعره .

وفي الفصل الذي خصه به بطرس البستاني في كتابه : أدباء العرب (ص ٤٠٥) تحدث عن منزلته فقال : « فضلوه على ابن المعتز ، وبين هذين الشاعرين شبه ، فكلاهما ملك ، قال الشعر متلهيا لا متكبسا ، ونظمه في الفخر ، والغزل ، والإخوانيات : إلا أن حياة ابن المعتز كانت راحة ورخاء ، فأكثر من وصف الرياض والحدائق ، ومجالس اللهو ، وغدوات الصيد ، فغلبت الصنعة على شعره ، وكانت حياة أبي فراس حربا وأسرا ، فأجاد الفخر والحماسة ، وأبدع في روميته ، وغلبت على شعره العاطفة ، لأنه لم يتكلفه تكلفاً ، وإنما جرى به طبعه الصحيح ، وهو في أشد حالات التأثر ، محارباً كان أو أسيراً .

واستسلامه إلى العاطفة المطلقة ، جعل في خياله ضيقاً ، فلم ينفسح له مجال التصوير والتزيين ؛ فقد كان يصف حالته في الأسر ، كما يحسها ويشعر بها ، لا كما تجسمها الخيلة وتوسعها ؛ وكان يصف الحروب ، ويذكر الوقائع ، دون أن يلجأ إلى الخيال ؛ لتلوينها وتعظيمها ، فعل المتنبي ، فصوره الخيالية قصيرة الخطى ، قريبة المدى . ولكنها لطيفة محببة .

وتمتاز لفته بحسن اختيار الألفاظ وجمال التعبير ، ففيها الجزالة ، وشدة الأسر في موضع الشدة ، وفيها الرقة والسهولة في موضع الحنو .

وجدير بنا أن ننصف أبا فراس فنقول : إنه أشعر المولدين في حماسياته ، وأشعر الناس في روميته ، وشاعر العاطفة في كليهما ، وهو الشاعر الملك ، والملك الفارس ، والفارس الأسير .

وكتب الأستاذ علي الجارم بك ، قصة عن أبي فراس (سلسلة اقرأ رقم ٣٤ سنة

١٩٤٥م) وهي قصة خيالية ، بناها على حب خيالي ، بين الأمير ونجلاء الخالدية ، وقد اخترع كاتبها شخصيات ، لا صلة بينها وبين التاريخ ، والقصة شائقة حقاً ، وإن كنت أفضل بناء هذه القصص على الحقائق الثابتة . وإن في تاريخ أبي فراس الحقيقي ما يصح أن تدور حوله أروع المآسي ، فموت أبيه وهو طفل ، وحبه لإحدى قريباته ، كما رجحنا ، وتطلبه معالي الأمور ، وأسرره بالقسطنطينية ، ومأساة قتله ، كل ذلك مما يجد فيه الكاتب ، مادة خصبة ، للخيال الذي يصور شاعر بني حمدان ، ويحول شخصيته ، ويرسم عصره .

هذا فضلاً عما فيها من قلة تحقيق ، في ذكر التواريخ ، فهي تدعى أن أبا فراس قد تركه أبوه في غضارة الطفولة ، يتعثر في سنوانه السبع ، والصحيح أنه لم يعد الثالثة من عمره ، كما أنها تدعى أنه سافر إلى حلب سنة ٣٣٦ ، حين كان عمره ثمانية عشر عاماً ، وهذا غير صحيح ، لأنه ولد في سنة ٣٢٠ هـ .

\* \* \*

في دائرة المعارف الإسلامية ، التي تنقل إلى العربية ، ترجمة لأبي فراس ، كتبها الأستاذ بروكلمان ، وهي فصل قصير مركز ، شأن ما يكتب في دوائر المعارف ، أوجز فيه حياة الشاعر ، وجمع بعض أخباره ، وختمه بهذا الحكم : « وتمتاز أشعاره بطابع شخصيته القوي الواضح ، وهي أقرب ما تكون إلى اليوميات ، ولو أنها لا تختلف في أسلوبها عن أشعار معاصريه ، وهي ليست في قوة أشعار المتنبي » . والكاتب يعترف بشخصية الشاعر القوية الواضحة ، ومعنى أن أشعاره أقرب ما تكون إلى اليوميات ، أن الشاعر قد سجل في شعره إحساساته اليومية المتقلبة ، بين الألم والنور ، واليأس والأمل .

وأخيراً يرى الكاتب أن أشعار المتنبي ، أعظم روعة من أشعار أبي فراس ، ولست أدري إن كان نقل مترجمي دائرة المعارف صحيحاً ، لأن المستشرق بلاشير ، في كتابه عن المتنبي ( ص ٣٣٠ ) ينقل أن بروكلمان في دائرة المعارف ، يضع

أبا فراس فوق المتنبي ، وهذا نص عبارته : *Comme Von Kremer* ، *Brockelmann met Abou Firas bien au-dessus d' About-Tayyib*.  
وتعرض للحكم على هذا الشاعر قبل بروكلمان ، فون كريمر ، وقد عقد موازنة بينه وبين أبي الطيب ، وعنده أن ديوان المتنبي مبين تمام المباينة لديوان أبي فراس ، من حيث صدور هذا من ينبوع النفس ، ومن حيث رقة العاطفة والبساطة ، ويظل ديوان المتنبي أقل كثيراً من ديوان أبي فراس .

وفي الترجمة الموجزة التي كتبها المستشرق إيوارت Huart في كتابه : الأدب العربي ، ألم المؤلف بمجمل حياته ، ثم يحتم الترجمة بهذه العبارة : « كان أبو فراس محارباً شجاعاً ، تخلو أشعاره من التعجرف والادعاء ، وتنبع من شعور حقيقي صريح ، في لغة نبيلة رفيعة ، وهي تكون يوميات حياته المضطربة » .

وفي مقدمة ديوان أبي الفرج الدمشقي المشهور بالأواء ، يفضل المستشرق كراتشكوفسكي Kratchkowsky أبا فراس على المتنبي ، لأنه أكثر بساطة في أسلوبه ، وأغنى منه في التعبيرات التي يملها القلب .

وقد تعرض المستشرق بلاشير R. Blachere لأبي فراس في مواضع عدة من كتابه عن المتنبي ، وهو يرى شعره شعراً حقيقياً ، عميقاً في إنسانيته ، وقد أجمل تاريخ حياته ، ولاحظ أن حادث قتل أبيه ، وهو صغير ، قد طبع حياته بطابع حزين ، لم تستطع السنون إلا أن تزيد ، حتى إذا انتهى المستشرق إلى حديث أسره قال : « لقد نظم في الأسر هذه القصائد المعروفة بالروميات ، وهي ، ببساطتها وتناسقها ، وما تنبع عنه من إلهام إنساني خالص ، وإحساس ذاتي محض ، تجعل من أبي فراس شاعراً فريداً في عصره ، بل في كل عصور الأدب العربي » .  
( ص ١٣٦ ) كما تحدث المستشرق أيضاً عن العلاقة العدائية ، التي كانت بين أبي فراس والمتنبي ( ص ١٤٢ ) ، والشعر الذي سجل فيه انتصارات ابن عمه سيف الدولة .

وعقد الدكتور سامى الدهان فصلا<sup>(١)</sup> أجمل فيه مدى صلة الغربيين بأبى فراس : فمنهم من اختار بعض قصائده ، وترجمها ، وجمع فى إيجاز ماقاله المؤرخون عنه ، كما فعل فريتاج Freytag سنة ١٨١٩ . ومنهم من نقل ما كتبه عنه صاحب اليتيمة ، وناقشه ، كما فعل ديتريسي Dieterici سنة ١٨٤٧ . ومنهم من درس تاريخ حياته مثل شلمبرجر Schlymberger سنة ١٨٩٠ ومنهم من درس شعره وديوانه ، كدفوراك ( Dvorak ) سنة ١٨٩٤ .

---

(١) المجلد الأول ص ٣٠ من ديوان أبى فراس .

## خاتمة

وبعد ، فهذه حياة أمير ، ولد في أسرة طامحة ، لأب يرنو إلى الإمارة والملك ، استقبل الحياة منذ طفولته يتيمًا ، ولكنه استعاض من اليتيم ، رعاية أمير أحبه ، وعطف عليه ، ونشأه على خير ما ينشأ عليه الأمراء ، فخرج قائدا شجاعا ، خاض غمار شتى المعارك ، وصادفه سوء التوفيق في إحداها ، فأسر ، وظل مدة طويلة ، بعيدا عن أهله وبلاده ، ولم يسكد يخرج من الأسر ، حتى تحرك فيه طموح ورثه ، وكان سبب مصرعه .

وقد سجل في شعره خواطره ، ونزعات نفسه ، منذ الصبا ، وامتاز في الأدب العربي كله ، بهذه الروميات التي قالها في الأسر ، واتخذها متنفسا ، يشكو إليه به وآلامه .

ولم أقف له عند مؤرخيه ، على صورة حسية ، اللهم إلا ما نقله بطرس البستاني ، من أنه كان طويلا بدينا ، ولكني ألمح في شعره ، أنه كان قسما ، حتى ساغ له أن يلقب نفسه بزين الشباب ، وإن كان قد قلل من هذه القسامة ذلك الشيب ، الذي جلل رأسه منذ عصر مبكر ، وربما أنقص منها كذلك ، أثر سنن ، أصاب خده ، في إحدى المعارك .

هذا ، وإني أرجو أن أكون قد جلوت للشاعر صورة قريبة من الحق ، ترسم نفسه وشعره .

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

حلوان الحمامات في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٩ م .

## مراجع البحث

- أبو فراس : ديوان أبي فراس — نشره الدكتور سامي الدهان . طبع  
بيروت سنة ١٣٦٣ هـ ( ١٩٤٤ م ) .
- أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ،  
سنة ١٣٦٤ هـ ( ١٩٤٥ م ) .
- أحمد الزين : مجلة الثقافة . السنة الأولى ، سنة ١٩٣٩ م ، ص ٤٥ ، ٤٦ .
- أحمد الكفاني الأبياري : إيناس الجلاس بتشطير وشرح قصيدة أبي فراس .  
طبع مصر .
- أحمد بن محمد بن خلكان : وفيات الأعيان . المطبعة اليمنية بمصر  
سنة ١٣١٠ هـ .
- بروكلان : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ص ٣٨٧ .
- بطرس البستاني : أدباء العرب ، ج ٢ طبع بيروت سنة ١٩٣٤ م .
- جرجس بن العميد . تاريخ المسلمين . طبع ليدن سنة ١٦٢٥ م .
- جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . مطبعة الهلال سنة ١٩٣٠ م .
- زكي مبارك : الموازنة بين الشعراء . القاهرة سنة ١٩٣٦ م .
- سامي الكيالي : سيف الدولة وعصر الحمدانيين . المطبعة الحديثة ، حلب  
سنة ١٩٣٩ م .
- السيد محسن العاملي : أبو فراس الحمداني . بيروت سنة ١٩٤١ م .
- طه حسين : مع المتنبي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ م .
- عبد الحى بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . غنى  
بنشره حسام الدين المقدسى سنة ١٣٥٠ هـ .

عبد الملك الثعالبي النيسابوري : يتيمة الدهر . الطبعة الاولى . مصر  
سنة ١٣٥٢ هـ ( ١٩٣٤ م ) .

عبد الوهاب عزام : ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام . مطبعة الجزيرة .  
بغداد سنة ١٣٥٥ هـ ( ١٩٣٦ م ) .

علي بن محمد بن الأثير : السكامل في التاريخ . المطبعة الأزهرية المصرية .  
الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ .

فؤاد أفرام البستاني : مجلة المشرق سنة ١٩٢٨ م من ص ٢٦٥ — ٢٧٤ .  
كامل فريد : طراز الأدب . طبع القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

كامل كيلاني : صور جديدة من الأدب العربي . طبع مصر سنة ١٣٥٨ هـ  
( ١٩٣٩ م ) .

المتنبي : ديوان المتنبي . طبعة هندية سنة ١٣٤٢ هـ ( ١٩٢٣ م ) .

محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية . طبع مصر .  
سنة ١٣٣٩ هـ ( ١٩٢١ م ) .

محمود سامي البارودي : ديوان البارودي . شرح محمود الإمام .

يوسف البديعي : الصبح المنبي عن حثية المتنبي . مطبعة الاعتدال

سنة ١٣٥٠ هـ .

Clement Huart : Littérature Arabe. Paris' 1931.

R. Blachère : Un Poète Arabe de Xème Siècle.

[ تم طبع كتاب « شاعر بني حمدان » في مطبعة لجنة البيان العربي  
بالقاهرة في يوم ١٥ من رمضان سنة ١٣٧١ هـ الموافق ( ٨ من يونيو سنة  
١٩٥٢ م ) والحمد لله أولاً وآخراً ] .

رئيس محفوظ

المدير الفني للطبعة



# الفهرس

| الصفحة | الموضوع          | الصفحة | الموضوع                       |
|--------|------------------|--------|-------------------------------|
| ٣      | الإهداء          | ١١٠    | الغزل                         |
| ٥      | مقدمة            | ١١٨    | الوصف                         |
| ٦      | عصر يضطرب        | ١٢٢    | أرجوزته في الصيد              |
| ١٠     | بنو حمدان        | ١٢٧    | الشكوى والعتاب                |
| ١١     | أسرة تنهض        | ١٢٨    | الرثاء                        |
| ١٩     | يتيم             | ١٣٢    | الحكمة                        |
| ٢٦     | بيئة مثقفة       | ١٣٦    | المدح                         |
| ٣١     | نفسيته           | ١٣٧    | الإخوانيات                    |
| ٤٤     | صلته بأسرته      | ١٤٠    | ديوانه                        |
| ٤٧     | صلته بسيف الدولة | ١٤٨    | بينه وبين المتنبي             |
| ٥٤     | في الأسر         | ١٧١    | عيد حزين بين ثلاثة من الشعراء |
| ٨١     | موت أمه          | ١٧٥    | رأيته في الشعر المعاصر        |
| ٨٣     | تشييعه           | ١٨١    | أبو فراس بين نقاد العرب       |
| ٨٨     | خاتمة المطاف     |        | والمستشرقين                   |
| ٩٢     | شعره             | ١٩١    | خاتمة                         |
| ١٠٢    | أغراض شعره       | ١٩٢    | مراجع البحث                   |
| ١٠٤    | الفخر            | ١٩٣    | مصور للدولة الحمدانية         |

# للمؤلف

## (١) تأليف :

- ١ - شاعر بنى حمدان . ( دراسة تفصيلية لأبي فراس الحمداني ) .
- ٢ - رفاعة الطمطاوى بك . ( نال الجائزة الأولى ، فى المسابقة الأدبية ، لجمع فؤاد الأول للغة العربية ، سنة ١٩٥٠ م ) .
- ٣ - من بلاغة القرآن .
- ٤ - الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام .
- ٥ - الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . [تحت الطبع]
- ٦ - عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . ( يتناول الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والحربية ) . [تحت الطبع]

## (ب) تحقيق :

- ١ - ديوان القاضى الفاضل . [تحت الطبع]
  - ٢ - ديوان المعتمد بن عباد . ( بالاشتراك ) .
  - ٣ - ديوان أسامة بن منقذ . ( بالاشتراك ) .
  - ٤ - المطرب من أشعار أهل المغرب . ( بالاشتراك ) .
  - ٥ - البديع فى نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ . ( بالاشتراك ) . [تحت الطبع]
- (ح) ترجمة .

ديوان المتنبي ، فى العالم العربى ، وعند المستشرقين .  
( القسم الثانى من كتاب المتنبي ، للمستشرق : الدكتور بلاشير ) .